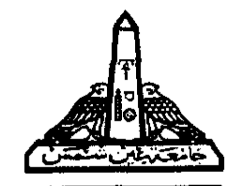
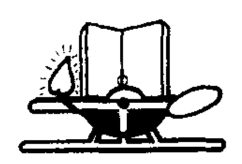
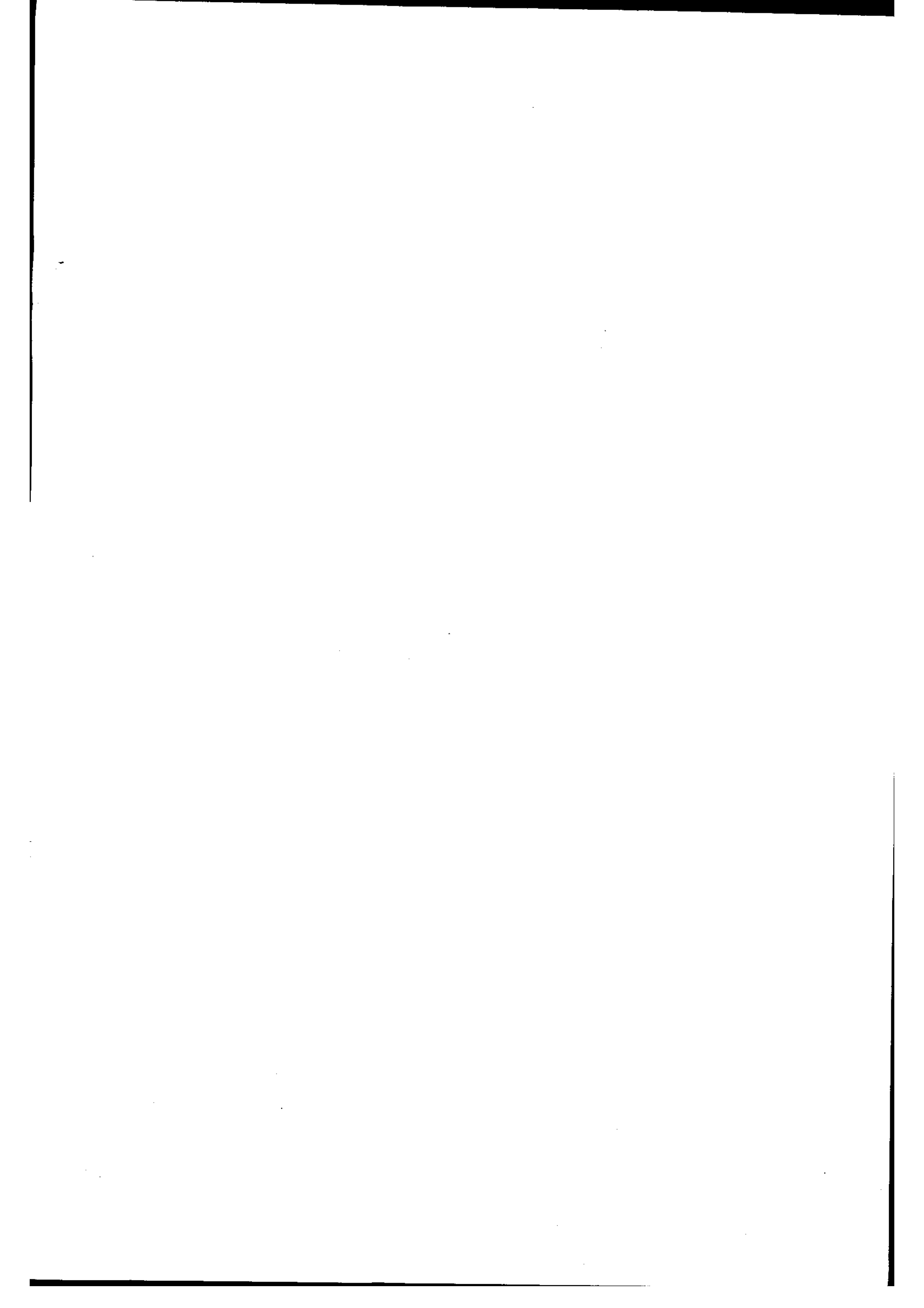




أعلام من كلية الآداب

أ.د. مصطفى زيــور

كلية الآداب - جامعة عين شمس



الفهرس

***

تقديم

تهتم كليـة الآداب بجامعـة عين شمس بتجـديد التواصل العلمي بين أعـلام الأسـاتذة الذين ثوالـوا على الإسـهـام فى بناء صـرحـهـا العلمي، جيـلاً بعد جـيل والهدف من ذلك تذكيـر الأبناء من طلاب العلم فى الكليـة بالإسهـام العلمي للأساتذة المـؤسسين في مـجالات تخصـصاتهم المختلفـة، تشجيـعاً لهم على المتـابعة والاقتـداء بهؤلاء الأعلام.

لقد رأت إدارة الكلية فى هذا تعبيراً عن الوفاء لهؤلاء الآباء الذين لا ننسى فـضلهم وإذا كان هذا من الوفـاء الروحى لتراثهم، فـإنه من جـهة أخـرى من التـقـدير العلمي لهـذا التـراث. إنه إيمان بأن هؤلاء الرواد باقـون بيننا بما قدمـوا للعلم والوطن ولأبنائه فى جـامعـة عين شمس ما نفخر به جميعاً على مر الزمان.

من أجل ذلك فإنه تجديداً للذكرى، ودعـماً لهذا التواصل العلمي المأمول يقيم مركز الدراسات الإنسانيـة والمستقبليات فى كلية الآداب بجامعة عين شـمس سلسلة من الندوات الدورية تحت عنوان « أعلام فى كليـة الآداب » تتناول العطـاء العلمى، والإنجـاز الفكرى لبـعض أساتذتهـا الذين أسهـموا إسهـاماً واضحـاً فى بناء صرحـها العلمى، وكـانوا رواداً لهم شـأنهم فى تـخـصـصهـم، وقـد تواصل عطاؤهم

العلمي جيلاً بعد جيل في تلاميذهم الذين حملوا الراية من بعدهم.

وقد رأت اللجنة المختصة بفضل توجيه أ.د. محمد عبد اللطيف هريدي عميد الكلية، وتأييده لنشاط هذه الندوات في تكريم هؤلاء الأعلام، أن تنشر علي طلاب المعرفة المادة العلمية التي قدمت في هذه الندوات ترجمة للأساتذة المحتفى بهم، وتحليلاً لمناهجهم العلمية، وآفاقهم المعرفية.

وتأمل اللجنة أن تقدم بهذا للأبناء نماذج خالدة من المثل العليا في المثابرة والاجتهاد والإخلاص للعلم والوطن والمستقبل.

إن تخليد الذكرى بهذا الذى ننشره اليوم عنهم إنما هو فى جوهره تقدير لمعنى الوفاء لتراثنا العلمي، ولأجيال سابقة من علماء مصر الذين أسسوا صرح المعرفة فى جامعة عين شمس منذ إنشاها سنة ١٩٥٠.

تحية للقارئ الكريم فى كل مكان، وندعوه أن يسهم معنا فى تطوير هذا الجهد المتواضع فى تجديد معنى التواصل والوفاء لأجيال سابقة من علماء مصر.

اللجنة

المقـرر: أ.د. عفت محمد الشرقاوى

أمانة اللجنة: السيدة رجاء الوكيل

رئيس مركز الدراسات الإنسانية والمستقبليات

أ.د. محمد سيد خليل

وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث



احتفاليـــة

أ.د. / مصطفى زيـــور

ضمن سلسلة ندوات «أعلام من كلية الآداب»

والتى ينظمها مركز الدراسات الإنسانية والمستقبليات

يوم الثلاثاء الموافق ٢٩/٤/٢٠٠٣م

بقاعة المؤتمرات بالكلية

السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور مصطفى زيور

* ولد الأستاذ الدكتور مصطفى زيور فى الأول من سبتمبر ١٩٠٧.
* حصل على درجة الليسانس فى الفلسفة من الجامعة المصرية (جامعة فؤاد فى الدفعة الأولى ١٩٢٩).
* سافر إلى بعثته فى باريس فى ذات العام وحصل على شهادة الفلسفة وعلم المنطق ١٩٣٠ من جامعة السوربون.
* حصل على شهادة فى علم النفس العام من جامعة السوربون أيضاً عام ١٩٣١.



* اتجه للتحليل النفسى وكانت التقاليد العلمية فى حينها تلزم بدراسة الطب وهكذا اتجه إلى الطب وحصل على شهادة العلوم الطبية والكيميائية والبيولوجية عام ١٩٣٣ (كلية العلوم).

* حصل على درجة الدكتوراه فى الطب ١٩٤١ من جامعة ليون وكان عنوان أطروحته الأفيزيا والخرق المخى (العسر الدماغى) aphasia et gaucheria cerebral.

* عاد إلى مصر وعينه طه حسين أستاذاً مساعداً بجامعة الاسكندرية (فاروق الأول) ١٩٤٢.

* نشر مقاله الأول فى التحليل النفسى تحت عنوان «ثنائية العواطف» حولية كلية الآداب جامعة الاسكندرية - مايو ١٩٤٣.

* ثم «دراسة إكلينيكية للقلق العصبى» وهو بحث ألقى فى المؤتمر الطبى العربى الخامس ونشر فى المجلة الطبية المصرية يونيو ١٩٤٣.

* أصدر مع زميله الأستاذ الدكتور يوسف مراد مجلة علم النفس يونيو ١٩٤٥ - ١٩٥٣ ونشر فى عددها الأول بداية مقالاته الثلاث عن فصول فى الطب السيكوسوماتى (الطب النفسى الجسمى).

* عاد لباريس فى نهاية ١٩٤٥ ليكمل تحليله النفسى (التدريبى) وعين رئيساً لعيادة جامعة باريس - واستمر بباريس حتى عام ١٩٤٩.

* وقع عليه اختيار د. طه حسين و د. كامل حسين لينشئ أول قسم لعلم النفس فى عالمنا لاعربي بجامعة ابراهيم (عين شمس) منذ أنشائها وظل منذها أستاذاً ورئيساً لقسم علم النفس والدراسات الإجتماعية.

* فى سنوات وجوده بباريس منذ عام ١٩٤٥ نشر مجموعة من المقالات عن الأمراض النفسى جسمية بالانسكلوميديا الطبية الفرنسى والمجلات المتخصصة فى الطب والتحليل النفسى أولها فى إبريل ١٩٤٨ بالاشتراك مع د. ديلاى كانت بعنوان دراسة سيكوسوماتية لحالة جلوكوما نشر منه.

* ثم تحليل نفسى لزملة أعراض سيكوسوماتية ١٩٤٨.

* ثم دراسة سيكوسوماتية لحالة قرحة الأثنى عشرة.

* ثم الربو.

* ثم الحساسية.

* شارك في مؤتمر الطب النفسى الأول بفرنسا بعد الحرب العالمية الثانية.

* شارك فى المؤتمر الدولى للربو عام ١٩٥٠ ونشر بحثه عن الربو والاتجاه النفسى.

* مع عودته لمصر وانشائه لقسم علم النفس واصل نشر مقالاته لمجلة علم النفس.

* الآباء المشكلون يونيو ١٩٥١.

* سيكلوچية التعصب فبراير ١٩٥٢.

* رأس تحرير مجلة الصحة النفسية عام ١٩٥٨ ونشر فى عددها الأول وقد صدرت أعداد ثلاثة لهذه المجلة عن الجمعية المصرية للطب النفسى التى كان رئيساً لها.

* تواصلت مقالاته وأبحاثه فى : -

- مجلة أصوات، لندن، ١٩٦١.
- مجلة الفكر المعاصر، القاهرة، نوفمبر، ديسمبر ١٩٦٨.
- كما ألقى عديداً من الدراسات والأبحاث فى :

كلية الطب، القصر العينى، جامعة القاهرة، المركز القومى للبحوث الاجتماعية الجنائية، المجمع العلمى المصرى والذى اختير عضواً به، الجامعة الأمريكية.

* وتجدر الأشارة إلى أنه القى سبعة عشر حديثاً بالإذاعة المصرية بين عامى ١٩٥٤ - ١٩٥٦ وموضوعها شفاء النفس وشقاؤها، ونشرت فى إصدارات وزارة الإرشاد القومى ١٩٥٩.

* كما نشرت مقالاته عن الطب السيكوسوماتى، مع فعاليته عن سيكلوچية التعصب وأضواء علي المجتمع الإسرائيلى وكان المحرر د. اسامة خليل مدير معهد اللغة والحضارة العربية بباريس آنذاك (١٩٩٧).

* أقيمت احتفالية أخرى بباريس فى ذكراه الثامنة (سبتمبر ١٩٩٨) وتحدث فيها د. مصطفى رضوان، حسين عبد القادر (المركز الثقافى المصرى بباريس).

* تجدر الاشارة إلى أن المجلس الأعلى للثقافة قد قام فى أول احتفالية بذكرى الرواد من علماء النفس كان اسم العلامة مصطفى زيور ضمن من كرموا فى هذا اليوم الذى عقدته لجنة علم النفس والتربية

بالمجلس الأعلى للثقافة، وقام بالقاء كلمة التكريم حسين عبدالقادر ونشرت الكلمة بعنوان «مصطفى زيور علماً من رواد التنوير» من اصدارات المجلس الأعلى للثقافة.

* ومن المعروف أنه رأس لجنة علم النفس المجلس الأعلى للثقافة والآداب وظل رئيساً لها إلى أن أنشئ المجلس الأعلى للثقافة وصممت لجنتى علم النفس والتربية.

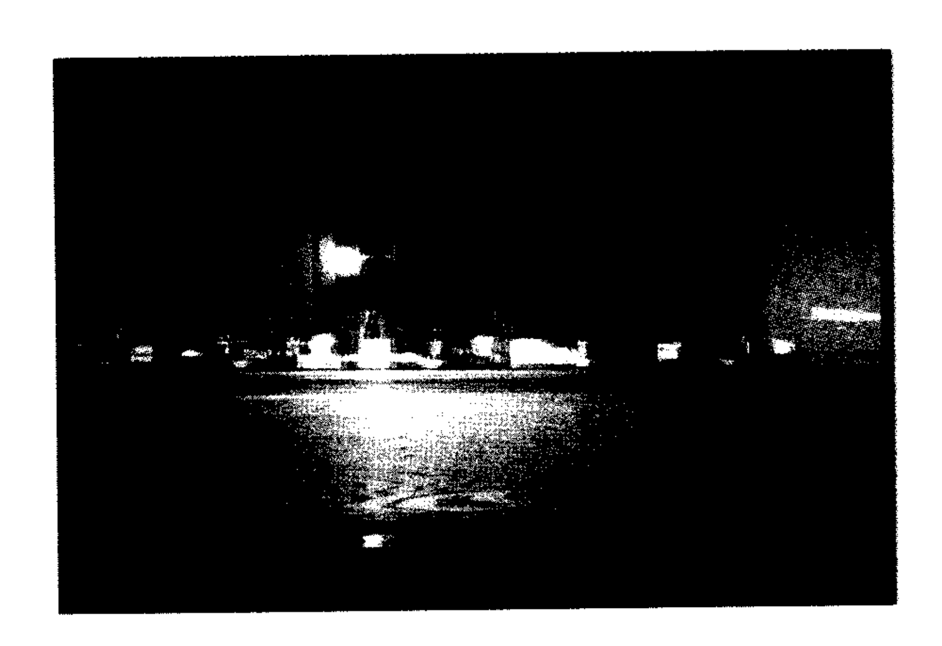
* كان عضواً بالمجالس القومية المتخصصة.

* حصل على وسام الإستحقاق من الدرجة الأولى من الرئيس جمال عبدالناصر ١٩٦٨.

* حصل على جائزة الدولة التقديرية وسوام العلوم والفنون ١٩٨١.

أ.د. عز الدين اسماعيل

عرفت الدكتور زيور - رحمه اللّه - كما عرفه كثيرون غيرى، رجلاً أنيقاً فى مظهره وفى سلوكه، ولكننى حين قربت منه أدركت فيه شيئاً آخر أهم، ألا وهو أناقته العقلية. أجل، لقد كان أنيقاً فى تفكيره كما كان أنيقاً فى كلامه؛ فى لغته وفى تعبيره؛ وهذه خاصية نادرة فى العلماء.



لم يكن الدكتور زيور عالماً يتقن علمه فحسب، أو أستاذاً يعرف كيف يصل إلى عقول تلاميذه ليعيد تشكيلها على قاعدة المعرفة الرصينة فحسب، بل كان - إلى جانب هذا وذاك - فناناً فى أحاسيسه،

وإنساناً فى علاقاته. وهذا ما جعله يخرج بالمعرفة العلمية من دائرتها الأكاديمية إلى مجتمع الناس. ومن هنا كانت أحاديثه الإذاعية التى كان حريصاً على تقديمها إلى الجمهور العام، والتى كان يحلو له أن يسمعنى إياها قبل إذاعتها وأنا فى ذلك الوقت معيد فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب، كأنه كان يختبر وقعها لدىّ قبل أن يواجه بها الجمهور.

كان ذلك فى أوائل الخمسينيات من القرن العشرين. وكنت - إثر تخرجى من الجامعة فى عام ١٩٥١ قد نشرت سلسلة من خمس مقالات فى موضوع التفسير النفسى للأدب، كان اهتمامى الغالب فيها بعلم النفس التحليلى، وبالمفاهيم التى قدمها سيجموند فرويد على وجه الخصوص. وقد خيل إلىّ أن هذا ربما كان السبب فى إيثارى بأن أكون أول مستمع لتلك الأحاديث، ولكن الأرجح أن هذا الإيثار كان لسبب آخر، هو أن يطمئن ذلك العالم إلى وقع كلامه بما هو بناء لغوى وصياغة. ومن خلال هذه الأحاديث عرفت كيف يمكن أن يجتمع فى الفرد الواحد فضيلتان : أناقة التفكير وأناقة التعبير.

مصطفى زيور
وجدان أب وشموخ عالم

د. حسين عبدالقادر

بأى الكلمات أبدأ، والمعانى التى أريدها تزاحم حين تهجع على صدر التفاصيل وما أكثرُها حين تتوالدُ فى الأحرُفِ ألوانُ النجوى، وتتعالى الخلجاتُ بالأشواق، وترنو لميم حرف اسمه الأول بـ ميمِ المواجيد، وميمِ المجد، وميمِ المرامى، وميمِ المُعَلّى دوماً، وميمِ المعلم، وما أكثر منابع علمِه، ومن قبل ومن بعد «ميم المصطفى» .. وقد أمضى فينا منابع من مفاتيح فتوحات علمه ليعيدَ نشأتَنا إذ يعلمُنا كيف نُمسك بالمرئى فى اللامرئى، وبالمنطق فيما يبدو غفلاً من منطق وكلها من فيوض ميمات معرفته، وهو الذى سكن خوالج القلوب، وستظل أسرابٌ من علمه نسعى لاشعاع منها إذ نعاود قراءة متونه لنستبصر فى كل قراءة بمزيد ..

أىُّ قدرٍ كان حظُّنا إذ شَرُفْنا بالتلقى عليه، وقد كان دوماً مدى يحنو، وخطًى تدنو وإنساناً وعالماً يُمثِّل بعلمه شارةَ إمارة على الجديد الذى يستنهضُ همَمَ الأبناء، ويتحدى ببصيرته تلك المفاهيم التى

استطالت أو استدارت بلا بصر أو بينة، فقد كان حركةً موصولةً لا ينقطعُ سَعيُها بحثاً دءوباً عن قيامة أخرى لعلم النفس لا التحليل النفسى فحسب من أجل اكتمال - إن كانه - يتحدى الممكنَ إلى ما كان يبدو مستحيلاً.

وهنا نستطيع أن نَذْكُر العديدَ من تاريخ ممتد ما أكثر ما فيه تصديقاً لما تقول بدءاً من منعطفه من الفلسفة التى لم يودّعْ منابرَها. وكيف لا يكون ذلك وهى أم العلوم.

لقد حصل على ليسانس الآداب من الدفعة الأولى من الجامعة المصرية (جامعة فؤاد الأول) عام ١٩٢٩ من قسم الفلسفة، وتلقى معارفهَا آنذاك على يد أعلامها من الفرنسيين والمصريين، ومنهم لالاند، صاحبُ القاموسِ الفلسفى الشهير، وهنا نذكِّر بأن محاضرات لالاند فى الفلسفة والتى ترجمها للعربية أستاذهُ بالمدرسة الثانوية أحمد حسن الزيات - صاحب الرسالة - ويوسف كرم وراجعها أستاذهُ طه حسين، إنما قوبلت مخطوطتها الأولى بمخطوطته التى كان يكتُبُها وراء أستاذه لالاند، فكان جهد الطالب مصطفى رضوان زيور نعم العون للمترجمين.

وكان من بينهم العلامة جوستاف ميشو Michaut, G أستاذ الآداب الفرنسية الذى شغل كرسىّ الآداب الفرنسية فى كلية الآداب منذ عام ١٩٢٦ وعين عميداً للكلية من يناير ١٩٢٨ إلى أن عاد إلى عمله فى السوربون بعد تركه للجامعة فى أكتوبر عام ١٩٢٩، وهناك يلقاه زيور من جديد وله معه موقف سيحدد بعضاً من قدر زيور المصنوع بصنعه وستعود إليه، ومنهم هو ستليه Hostelet. M وراى Rey, E، ومنصور (باشا) فهمى. والشيخ مصطفى عبدالرازق، ويالهم من علماء.

ومع تفوق مصطفى على أقرانه يتقرر سفره إلى بعثة فى فرنسا بتزكية من عميد الكلية ميشو وأساتذته وعلى رأسهم طه حسين الذى نصحَه بدراسة علم النفس، والرائد لا يخذلُ معلميه ولا ينكصُ عن طموحه، ففى عام ١٩٣٠ حصل على شهادة الفلسفة العامة والمنطق من السوربون، وعلى شهادة علم النفس عام ١٩٣١ من ذات الجامعة. لكنّ الرغبة السرابية التى يُسَلِّم اللاكانيون بنقصانها ها هى تضعُه فى مفترق طريقين. بعد أن يَحْضُرَ محاضرةً عامةً للعلامة جورج ديما (وهو طبيب ومحلل نفسى)، وإذ تطرقُ سمعَه أفكارُ التحليل النفسى يهرْع المحاضر المحللَّ النفسى سائلاً إياه بداية «الطلب» عندما يَبْتعثُ اللاشعورُ مطالعَ الرؤى فى تسوية واجبة للصراع، ويطلب من جورج

ديما أن يدله على السبيل لدراسة التحليل النفسى، لكنَّ الواقعَ العلمىَّ للتحليل النفسى فى فرنسا آنذاك يلزمُ بدراسة الطب أولاً. وتستبدُّ الحيرةُ بابن الرابعة العشرين، وإن كان نضجُه المعرفى وشغفُه بالعلم يَسْبِقُ سنّه، ولم يُشْفِ أستاذُه ميشو غليلَه فالقرار الصَّعْبُ والمصيرى إنما هو قرارُ الإبن، ومع صفاء البصيرة التى تسعى لتسوية أخيرة مع شذراتِ من مساربِ الصراع الأوديبى، يكتب خطاباً لوالده رضوان (بك) زيور، كبير أطباء وزارة المعارف فى حينها (التربية والتعليم الآن)، يفاتحه فيه برؤاه، وهو الذى لا ينسى أنه تصفح يوماً بمكتبة والده النسخة الفرنسية من «محاضرات تمهيدية للتحليل النفسى» لسيجموند فرويد مع مقال آخر لكارل أبراهام كتب له المقدمة سيجموند فرويد وكان بعنوان «التحليل النفسى وأعصبة الحرب» Psychoanalysis and the war meurosis ، وها هو الإبن يكتب شهادة ميلاد لميلاد جديد، فالأب من جانبه يفتَرُّ سروره عن موافقة عجلى وإن قدَّرَ صعوبةَ المجالِ الطبى لمن لم يعدله. والابن من ناحيته وهو إرادة تحدى يتقدم من جديد لكلية الطب، ويجتاز مقررات القبول بها (١٩٣٢)، وفى عام ١٩٣٣ يحصل على شهادة العلوم الطبية والكيميائية البيولوچية من جامعة باريس، ويتوجُ جهده الممتد بشهادة الكيمياء

البيولوچية من السوربون عام ١٩٣٨، لكنه لا يغفل فى الآن نفسه وعداً قطعه على نفسه لطه حسين، بألا يُغفل أمَر علمِ النفس، فيحصل عام ١٩٣٩ علي دلبوم علم النفس التجريبى من جامعة السوربون، وكان قد بدأ فى الآن نفسه تحليلَه النفسىَّ (التدريبى)، والذى يُلزَم به كلُّ من يريدُ الاتجاه ليكون محللاً نفسياً ، بغض الطرف عن أن كُلَّ إنسانٍ إنما هو هاملت آخر - على حد تعبير فرويد-، وقد بدأ تحليلَه على يدٍ أكبر الأسماء فى فرنسا قبيل الحرب العالمية الثانية وعمدة الأطباءِ المحللين النفسيين فيها آنذاك العلامه لافورج (كان عدد المحللين النفسيين فى جمعية باريس للتحليل النفسى حتى مايو ١٩٣٩، أربعة وعشرين عضواً كاملى العضوية)، والذى يصفه بعض الأطباء النفسيين من غير المحللين فى حقبته «بأنه ضرب لا يصدق من صانعى المعجزات الذى يجذب وراءه موكباً من أولئك الذين قام بتحليلهم نفسياً.

ويشتغل إوار الحرب العالمية الثانية ويضطر مصطفى إلى الانتقال إلى ليون وتحت إشراف العلامة النيرولوچى فرومان Froment, Y تلميذ بابينسكى يُعدُّ المصطفى أطروحتَه للدكتوراه فى الطب عن «الآفيزيا والعسر المخى Aphesia et Gaucharie Cérébrale»

باعتبارها كما يقول العلامةُ يوسف مراد «تتويجاً للدراسات الطبية التى قام بها الباحث كأساس لما يهدف إليه (...) من الرغبة فى دراسة مشكلة يلتقى فيها بوضوح العضويّ والنفسى أى مشكلة الأفيزيا، أى فقدان القدرة على استخدام اللغة وفهمها. ويكون الدكتور مصطفى زيور فى اتجاهه هذا مخلصاً للتقاليد الفرنسية فى الجمعِ بين التقاليد الطبية والثقافة السيكلوچية، كما كان الأمر مع أساتذتنا بيير چانيه وچورچ ديما وهنرى فالون ... وقد استفاد الباحث بدراسة الفلسفية السابقة من ناحية ودارساته فى علم النفس التجريبى من ناحية أخرى ... تلك النظرة التى سبقه فيها فى مشكلات أخرى فى ميدان الأفيزيا كلٌّ من فرويد، وبيرِ مارى (وغيرهما) ...»

ويعود مصطفى إلي مصره بحراً عن طريق مارسيليا، ليعين أستاذاً مساعداً - وياللغرابة - لعلم النفس بكلية الآداب جامعة فاروق (الاسكندرية)، وهى فى حينها فرع من جامعة فؤاد (القاهرة)، ويالها من مفارقة، لكنه ودوماً يقبل التحدى وهناك بالأسكندرية يكون الرعيل الأول من أبنائه، تلامذته وفى الدفعة الأولى من خريجى قسم الفلسفة تلميذه وابنه وزميله كما كان - بتواضعه النبيل - يخاطب أبناءه العلامة مصطفى صفوان. هذا النابه الطُّلُعَة علم اللاكانية المُعَلَّى

وفخر مصر لافى باريس بل فى أنحاء العالم الذى يعرف قدر العلماء .
ويتكثر زيور فى أبنائه - على حد قول العلامة صلاح مخيمر - وما أكثرهم، ففى هذه الدفعة الأولى بقسم الفلسفة جامعة فاروق (الاسكندرية) ثلاثة طلاب فحسب. أما ثانيهم فهو الدكتور عبدالمنعم المليجى، والذى سيضمه زيور بعد عودته بالدكتوراه مدرساً بالقسم إلى أن هاجر إلى أميركا في مطالع الستينيات، وأما ثالثهم فهو المرحوم عبد المنعم عبدالله والذى آثر هداة الروح لمن عرفه بالاسكندرية، وهنا كيف لنا أن ننسى إبناً آخر للمصطفى والذى سارع على النهج الذى قدمه أستاذه لتراث التحليل النفسى فى الأمراض السيكوسوماتيه فى فرنسا إنه العلامة سامى على الذى صار اليوم علم أعلامها كتيار متفرد - فى هذا الميدان - لتيارين كلاهما بعض فضل ما قدمه المصطفى كرائد لهذا الميدان فى فرنسا عندما عاد إليها، بصحبة تلميذه وزميله بعدها والقامة التى يعتز بها كل عربى مصطفى صفوان وذلك فى ٣١ ديسمبر ١٩٤٥، وهناك سرعان ما يشارك المصطفى زيور فى مسابقة تفرضها التقاليد الفرنسية ليعين رئيساً لعيادة جامعة باريس وهناك يكمل من جديد تحليله النفسى الذى انقطع مع العلامة ساشا ناخت هذه المرة ويحصل على عضوية جمعية باريس للتحليل النفسى، ويكون أول

عربى يحصل على عضوية الجمعية الدولية للتحليل النفسى، وأكثر من ذلك ها هى مقالاته واهتماماته بالأمراض السيكوسوماتيه، وهو واحد من قلائل روادِها منذ منتصف أربعينيات القرن الماضى وتحتفى به المنابر العلميـة الفرنسيـة، ويدين له مارتى ممثل المدرسة الثانية فى السيكوسوماتية بفرنسا وقد كان مساعد المصطفى فى عيادة جامعة باريس، وها هى مفخرة أخرى من صنع المصطفى إذ يضيئ مشعلاً لتيار السيكوسوماتيه فى باريس ويحمل لواءه من بعده فرنسى هو مارتى ومدرسته، ومصرى معجون بحبها يفوح عطر مدرسته فى عديد من أفكار أوربا وأميركا الشمالية، بل وتمتد بلاد عربية تفتح النوافذ لمدرسة سامى على وياحسرتنا إذ تُغفُل مصر ما يناسب من نهرها علماً يفيض على الآخرين، ومن يرى هؤلاء وفيهم من لا يمكننا نسيانَه الطيرُ المهاجر لكندا العلامة أحمد فائق لأدركنا كما أدرك أستاذنا صفوان بفيوض رؤاه التى لا تغيض وثاقبِ تساؤلاته التى تدفع لاكتمال المعرفة إذ يتساءل فى إلماحة له بعنوان المعلم إذ يقول «صاحبت الدكتور زيور فى رحلته بعد الحرب إلى فرنسا حيث أُثبّت خطواتى الأولى فى مجال القضية (التحليل النفسى)، وحيث انصرف هو إلى صياغته نظرية فى الدلالات النفسية العميقة للأمراض الجسمية - النفسية

(السيكوسوماتية) تكونت حولها مدرسة لا تزال تعد حتى اليوم المدرسةَ الفرنسية الأولي فى هذا الميدان ... فاما كيف صمد وهو الذى كون مدرسة بفرنسا خلال إقامة لم تزد على السنتين بينهما انفض الجميع من حوله بمصر. فلهذه فى نظرى معجزة إنى أُذهل لها. لقد عرفت الدكتور زيور فى البدء مثالاً للمعلم. وإنى لأحيى فيه الأن مثالاً منقطع النظير للوفاء للوطن». ويظل التساؤل كيف صمد، رغم أعاصير كثيرة. وفى طيات السؤال نبع لمتعدد، من بينه وهو كثير، دور الأب صاحب الرسالة والدور الذى يرى أن الإنسان مسئولية كنوز علمه مذخورة لكل سائل، وثراؤه المعرفى طيعاً لمن أراد بالحب كان يفيض دوماً بالجدير، وبالحدب كان يعلمنا كيف نجمع كل الفصول بجدل المعرفه وكيف علينا أن نمضى لكل طرف قصى لنعبر كل المدارات حتى تلتقى الوقائع. وما أكثر ما علمنا، علمنا أن فكرة الأنطلاق من الصفر لتأسيس الجديد لا تصدر إلا عن ثقافات هشة، بقدر ما علمنا أن المعرفة فى جوهرها إنما هى رغبة فى رغبة آخر فإذا اكتملت معرفة الذات كان ذلك ايذاناً بمعرفة الآخر فى الذات، وصولاً إلى الموضوعية - إن كانت كذلك - إذ أنه وله الحق، كان يرى أن الذاتية حالٌ فى الموضوعية، وأن المخاطَب حال في المتكلم، مما يلزم

الوعى بالموضوع ومن قبله بأنفسنا حتى من قبل أن نعلق الحكم ونقوم بالإبوخيه Epocké (وضع العالم بين قوسين) فالعقل حركة، واتزان بعد صراع، وصراع من بعد اتزان، وبين الحالين جدل للمعرفة والعقال الحق - إن كان كذلك - هو الذى يقبل بالصراع ولا يفر منه لاتزان زائف. إذ عليه أن يعى بأن جهل الإنسان سلبٌ لعلمه، كما أن ايجابَه سلب لجهله، وبين السلب والإيجاب أيضاً صراع، يلزم بالشك فى اليقين المراوغ، حتى لا نصفَّد لإيجاب مع إنكار السلب، وبخاصة فى العلم الذى لا يتقدم من حقيقة لأخرى وإنما يتقدم ضد أخطائه.

لقد أزهر غرسه فى كل أبنائه. فى حروف هجائهم جميعاً، حتى من نكص على ندرتهم، فقد كان أعرف بنا - وهو المحلل النفسى الثاقب البصيرة - من أنفسنا، وليس غريباً أن يكون أول مقال له بمصره عام ١٩٤٣ عن ثنائية العواطف (الثنائية الوجدانية أو التناقض الوجْدانى كما ترجمها بنفسه للمصطلح Ambivalence بعد ذلك.

لقد كان فارساً ونبيلاً ونهراً يمضى بالخصب، أعطى روحه الشفيف لعشق العلم والوفاء. فلا غرو أن عاش فى أفئدة مريده من الزملاء والأبناء وهو من تخرج على يديه وأحفاده وبفضل القسم الذى أسسه

الألاف، ومن أفكار شتى، فى المشرق والمغرب العربى. وهنا لنا وقفة قد تضيف جديداً حول وقائع إنشاء هذا القسم الذى ربينا جميعاً فى محرابه.

فى السابع والعشرين من مارس عام ١٩٥٠ ناقش مجلس النواب تقرير لجنة شئون التربية والتعليم عن مرشوع قانون إنشاء وتنظيم جامعة إبراهيم باشا الكبير (عين شمس)، وكان عديد من طلاب المعاقد العليا التى ستكون بعد ذلك نواة هذه الجامعة قد أضرب طلابها واعتصم بعضهم الآخر يريدون - فيما أورده طه ح سين وزير المعارف يومها (التربية والتعليم الأن) بمضبطه المجلس - «أن يستمتعا بالنظام الجامعى كزملائهم فى جامعتى فؤاد الأول (القاهرة) و فاروق الأول (الإسكندرية)، ووجدت الأساتذة ليسوا أقل رغبة من الطلاب، بل لعلهم كانوا أكثر رغبة من الطلاب فى أن يستمتعوا أيضاً بهذه الحرية الجامعية ... ومصر فى نهضتها الحديثة محتاجةٌ إلى شباب حر مستقل لا يتحكم فيه الموظفون وإنما يتحكم فيه العلم الحر ...» ومع مداولات مجلس النواب وموافقته، ومن ثم موافقة مجلس الشيوخ، حتى صدر القانون رقم ٩٣ فى العاشر من يوليو عام ١٩٥٠ ونص فيه على إنشاء الجامعه بمدينة القاهرة لتضم بين جنباتها ثمان كليات ومعهدين للتربية

أحدهما للبنين الآخر للبنات، وكانت جل الكليات فى أساسها من هذه المعاهد التى أضرب أو اعتصم طلابها، وبفضل وزير واعٍ يعرف قدر العلم وواجب الدول ووزارته، وسرعان ما صدر مرسومان فى الثامن من أغسطس ١٩٥٠ بتعين أول مدير للجامعة المرحوم العلامة محمد كامل حسين أستاذ جراحة العظام الأديبُ صاحبُ المتفرقات وعضوُ مجمع اللغة العربية وبالمثل صدر المرسوم الآخر بتعيين المرحوم محمد عبدالرحيم مصطفى سكرتيراً عاماً للجامعة، وتتابع القرارات إذ يصدر طه حسينن قراره بعد شهر واحد من المرسومين فى التاسع من سبتمبر بتعيين عمداء الكليات ومديرى معهدى التربية، وكان أ.د. إبراهيم نصحى أمد الله فى عمره عميداً لكلية الأداب. وفى السابعة من مساء السبت الحادى والعشرين من أكتوبر ١٩٥٠ وقبيل ساعة من انعقاد أول جلسة لمجلس الجامعة برئاسة الدكتور طه حسين وزير المعارف، كان مصطفى زيور قد استدعى على عجل لمقابلة طه حسين بمقر الجامعة بحى المنيرة (مقر كلية التربية بعد ذلك) وهناك وجد مصطفى أستاذه طه حسين، وصديقه العلامه محمد كامل حسين على عجل للقائه ليعرض عليه أستاذه طه حسين إنشاء ورئاسة قسم للدراسات النفسية والاجتماعية على النحو الذى يراه مواكباً للتقاليد

الفرنسية، وارتفع مصطفي بموضوعية المحلل النفسى لمسكاً بما وراء رغبته، وكان تأسيس هذا القسم واختيار نخبة معاونيه الذى لم يكن من بينهم غير محلل نفسى واحد سيستدعيه من بعثته بعد حين هو العلامة مصطفى صفوان، كما أن مواد التحليل النفسى لم تتجاوز مادتين إحداهما فى السنة الثانية (التحليل النفسى)، والثانية هى علم النفس المرضى (بالنسة الرابعة).

وعلى غرار السوربون أيضاً مضت سنوات الدراسة بنظام الشهادات، فكانت السنة الأولى هى شهادة الدراسة الاعدادية، وتولى مصطفى بنفسه تدريس المدخل إلي علم النفس، وكانت شهادة السنة الثانية «شهادة علم النفس الاجتماعى والأنثروبولوچيا الاجتماعية»، أما شهادة السنة الثالثة فيما يتصل بتخصص علم النفس - فقد كان التخصص الدقيق يمضى من السنة الثالثة «فهى شهادة العلوم النفسية» فى مقابل شهادة العلوم الاجتماعية لمن سيتخصص فى علم الاجتماع، كما كانت شهادة السنة الرابعة لعلم النفس هى شهادة الصحة النفسة وعلم التفس التطبيقى وأما بالنسبة للمتخصص فى الاجتماع فكانت »شهادة هندسة المجتمع». وياله من زمن، وإن تاهت معالمُ شهادات السنوات الدراسية - وللحق - مع الافتتاح الفعلى للدُفعة الأولى فى

أكتوبر ١٩٥٢ فقد هبت على مصر رياح أخرى مع يوليو من نفس العام، لكن علينا هنا أن نذكر أن قسم علم النفس كان رائداً فى قبول الطلاب من خريجى معاهد الخدمة الاجتماعية للالتحاق منذ افتتاح القسم فى اكتوبر ١٩٥٢ للالتحاق بشهادة السنة الثالثة (شهادة العلوم النفسية)، وهكذا تخرج من هذا القسم عام ١٩٥٤ مجموعة متفردة منها العلامة المرحوم سعد المغربى والأستاذه الدكتورة كاميليا عبدالفتاح. وأحسب أن ما فعله مصطفى يمثل رعيلاً وحده يصعب أن يكون له مثال.

لقد كان يرى أن الإنسان مسئولية لكنها مسئولية لا تتحقق بغير المضنى فى الإمساك ببنية اللاشعور، لذا كان يفرق بين معرفة ومعرفة، فالمعرفة بأل التعريف يجب ألا تقف عند حدود المنطق المألوف «بل شرطها إسكات هذا المنطق إلى حين ... إذ يتصل زيف المعرفة بالكبت والاحجام اللاشعورى عن إدراك الواقع، لكن كيف السبيل لذلك بغير مجاهدة ندرك أنه من اللامنطق أن نتناول بالمنطق المألوف (منطق الشعور) مالا منطق فيه. أنها واحدةٌ من درر مقولاته ليدرك المرء أن اللاشعور يتبدى بما هو لغة فى الشعر، وأن المكبوتَ والمسكوتَ عنه إنما هو الغائب الموثر، لذا كان التحليل النفسى باعتباره علماً بموضوع هو

الإنسان فى كافة أحواله وأنشطته، فى روائه ومرضه، فى ابداعه وانحرافاته فى شمولية تصديه لكل قضايا الإنسان بنهجه الجدلى الذى لايقف عند محسوس الظاهر وإنما يتجه بفنياته إلى معقول النظام الخفى، يقوم على فعلٍ هو البحث - على حد تعبير لاجاش فى الترجمة الرائقة التى قدمها له مصطفى بعنوان «المجمل فى التحليل النفسى» و .. وما أكثر ما قدم مصطفى .. وما أكثر ما ينبثق فى الخاطر من مآثر أبوته وأنهار علمه وشموخ أياديه علينا جميعاً. من كان حظنا أن نتلقَّى صفو العلم على يديه وفى محاريب مدرسته، لقد كان تياراً جارفاً من الشموخ ينشر كبرياءه وعلمه فى العيون، نصف قرن قضاها معلماً عالماً وفيلسوفاً طبياً ومحللاً، ومن قبل ومن بعد إنساناً وأباً.

لم يكن مولعاً بغير العلم، والجديد فى العلم والنضال من أجل العلم وحشد الأبناء فى قاعة درس أو رفقه مريدين يرتشفون من نبع علمه أو زملاء يوطئ لهم كنفه، لكنه فى غضبته ومن أجل العلم أو نسق القيم عندها كنت ترى كبرياءه ووخزه الغضوب ممهوراً بغفران لا تعرفه سوى النفوس الكبيرة ... و ... وتمتد المستدعبات التى لا تنتهى لكنى أشير إشارات عجلى لبعض مواقفه وأبدؤها، بالباب الذى أصر أن يفتح لرفيق دربه أستاذنا يوسف مراد عندما ألم به عارض مألوف

عندما يأكل الأبناء لحم أبيهم وينسون فضل أياديه، وفُصل استاذنا من الجامعة، لكن مصطفى - وهو من يعرف قدر العلم وفضله - يلتقى بالعلامه مهدى علام عميد الكلية فى حينها ويتعالى الموقف بين قامتين شامختين ويتحمل مصطفى قيام أستاذنا مراد بتدريس مادتى الفسيولوچيا وعلم نفس الطفل لطلاب السنة الثلاثة إلى أن ألم به مرضه الأخير فكان حفياً بابنه الطبيب سمير يوسف مراد ليقوم بتدريس الفسيولوچيا إلى أن هاجر من مصر .

وموقف آخر يعرفه من عاصروه، وكنتُ أحدَ شهوده، عندما قام العلامة أحمد فائق، وباصرار منه بعد أن عرض الأمر على أستاذه، ليعطى امتحان نهاية العام لطلاب مادةِ التحليل النفسى منذ بداية الفصل الدراسى ليفتح أفْق الطالب على عالم المرجع والبحث، ولم يوافق مصطفى وإن ترك لابنه حريةَ القرار، ونفذ الابن ما رآه، وكان طبيعياً أن يأخذَ الطالب فى تقويم درجته بالشدة التى تتسق مع هدفه من معرفته بالسؤال من قبلِ القبل وكانت النتيجة غير سارة للكثيير من الطلاب الذين شكوه لمدير الجامعة، وكان وقتها العلامة أحمد بدوى، واستدعى فائق للقائه، وعلم مصطفى بالاستدعاء وتوقع بحدس المحلل النفسى استباقاً بما يمكن أن يتم مع ابنه من تحقيق فى موقف غير

مألوف لواقع ما عاد يحترم حرية الأستاذ الجامعى، ومنع مصطفى ابنه من الذهاب للقاء، وفى الموعد المحدد كان بمكتب العلامة بدوى وما إن سأله بدوى هل علمت بما فعله فائق، حت قال الشامخ مصطفى «إنه أنا من أمرته بذلك فليحقق معى. وللحق كاناً جيلاً من سدرة المنتهى. وما كان للموقف بعدها أن تكون له توابع، فقد انتهى ... و ...

وأحسب أن علىّ أن أنتهى .. وعلى لسان الصمت أكف، فقد علمنا المصطفى أنه حتى فى الصمت لغة، وفى باحة القلوب والعقول متسع للمعنى، فلإيلاف علمه كل الإجلال، ولإيلاف وفائكم أكرر نداء قلته فى الاحتفالية الأولى بلجنة علم النفس والتربية بالمجلس الأعلى للثقافة، إذ أنه ترك تراثاً معرفياً مذ كان رئيساً للجنة علم النفس بالمجلس الأعلى للفنون والآذاب، والذى ورث نشاطه المجلس الأعلى للثقافة.

ومن بين ما أشرف عليه وانتهت ترجمته معجم إنجلش وانجلش

Englissh. H. & English, A. : A comprehensive dictionary of psychological & psychoanalitical terms.

وللحق فقد أمر الدكتور جابر عصفور أمين عام المجلس فى جينها بمتابعة هذا الأمر، ومعه جهد آخر يتصل بأعلام الإنسانية الذى أسهم

فيه بالتعريف بعديد من علماء النفس ونشر منه الجزء الأول وفيه تناول بافلوف، لكننى على ثقة من أنهائه وتسليمه لحشد من الأعلام منهم واطسون ويونج وكان ذلك بتكليف من عزيزه المرحوم العلامة بيومى مدكور .. وما أكثر ما ترك زيور ويحتاج لنشر بكمل «فى النفس : بحوث مجمعة فى التحليل النفسى»، وما أكثر ما أفاض علينا ولما يزل بين أيدى مريديه .. وأحسبها تذكرة لن أمل من تكرارها إذ تبارك ما ارتوينا من علمه ساعة الارتشاف وما أحسبها إلاّ أروع لحظات العمر، وتبارك ما بدده عقولنا من عقولنا من معانٍ عجاف عندما بصرنا بأهمية الانتقال من وقفة المجهلة إلى رحابة المعرفة، ومن خطاب المعرفة والجامعة إلى خطاب الانشطار، بلوغاً - لمن يلتزم بحدس الكبت - إلى خطاب التحليل النفسى لمن يفض مغالق مقاومته.

بين قدر أوديب الذى تخطاه، وحكمة تريزياس الذى علمنا نبضاً من بصرته مضت مسيرة مصطفى زيور مضوّعة بعطر أياديه الممتدة علماً وأبوته الحانيه وجوداً، وكبريائه التى تتعالى شموخاً وإنسانيته التى تفوق كل حد، فقد كان رائقاً لمن يعرفه كنسمه .. هادراً فى الحق كاعصار .. عالماً كمنار، هانئا بأبنائه لُؤْلُؤَ محار، ملء الأحداق والأسماع كان وسيظل علمه الحياة، والشفق المتوجع إذ تترقرق ذكراه،

يذكرنا بأن العلماء لا يموتون فما كان مصطفى أحرفاً تثاقل بالدمع نقاطُها، أو ينتهى أسطراً فى صحيفة نعياً أو ذكرى ..

وسلام عليه من الصبح إلى الصبح .. سلام .. سلام إلى أن ألقاه،

عالمان فيلسوفان
يوسف مراد ومصطفى زيور

أ.د. مراد وهبة

بعد عودتهما من البعثة العلمية فى فرنسا أسسا «جماعة علم النفس التكاملى» فى يناير ١٩٤٥ وكانت الغاية من انشائها المساهمة فى أن تكون الذات الإنسانية على وعى بقدرتها على تحقيق نموذجها الأعلى الأمر الذى يستلزم تأسيس «علم الطبيعة الانسانية» فى ضوء المنهج التكاملى الذى أسسه يوسف مراد أثناء إعداده لرسالة الدكتوراه الرئيسية وعنْوانها «بزوغ الذكاء - دراسة فى علم النفس التكوينى والمقارن».

وفى يونيو ١٩٤٥ أصدرا «مجلة علم النفس» والغاية من اصدارها أن تكون حلقة اتصال بين العلوم الطبية والسيكلوجية الاجتماعية لأن هذه العلوم ينبغى أن تتعاون وأن يؤخذ فيها بمبادئ المنهج التكاملى الذى يهدف إلى دراسة الطبيعة الإنسانية». وهكذا تكون الغاية واحدة من تأسيس «جماعة علم النفس التكاملى» و «مجلة علم النفس».

واللافت للانتباه فى هذين المؤسسين أن أحدهما متخصص فى علم النفس وهو د. يوسف مراد والآخر متخصص فى الطب وهود.

مصطفى زيور ولهذا كان لابد من بيان العلاقة بين علم النفس والطب. وقد ألمح إلى هذه العلاقة الدكتور على إبراهيم باشا مدير جامعة فؤاد الأول فى كلمة الافتتاحية للعد الأول من المجلة إذ قال :

«كان الطب قديماً فرعاً من الفلسفة أو الحكمة وأصبح علماً قائماً بذاته مستقلاً فى ميادين بحثه. كذلك علم النفس كان منذ عهد غير بعيد فرعاً من الحكمة أو الفلسفة ولكن ما لبث أن انفصل عنها أيضاً وأصبح بدوره علماً مستقلاً ببحوثه وتجاربه ونظرياته العلمية حاذياً لذلك حذو علم الطب. فهما صنفان نبتا من أصل واحد ولكنهما تفرعا من الفلسفة قديماً وظلا روحاً من الزمن مستقلين كل منهما عن الآخر فى ميدان الدراسة والبحث العلمى» (ص٣).

أما المؤسسان فقد كان أكثر تحديداً لهذه العلاقة بين علم النفس والطب إذ هى بين علم النفس التكاملى والطب النفسى الجسمى فقد جاءت كلمتهما الافتتاحية المشتركة على النحو الآتى :

الغاية من المجلة أن تكون حلقة اتصال بين العلوم الطبية والسيكولچية الاجتماعية لأن هذه العلوم ينبغى أن تتعاون وأن يؤخذ فيها بمبادئ «المنهج التكاملى» الذى يرمى إلى دراسة الطبيعة الانسانية.

ولهذا فان مبدأ المجلة هو «التكامل»، وهو مبدأ يستن رلى علم النفس التكاملى الذى يقرر أنه لا وجود لأمراض جسمية بحتة ولا لأمراض نفسية بحتة.

بل إن المريض هو الإنسان مع تغلب المظاهر الجسمية فى بعض الحالات والنفسية فى بعضها الآخر وعلى هذا يلتقى علم النفس التكاملى بالطب النفسى الجسمى. بحيث ينظر إلى المريض باعتباره أعضاء مريضة بل أصبح يضع الأعراض المرضية فى إطار واسع يضم شخصية المريض بأسرها.

ويقضى التكامل بأن الجانب الاجتماعى يتمم تأليف الوحدة المثلثة للذات الانسانية ذلك أنه من العبث أن يدرُس الانسان على أنه كائن منعزل مجرد عما حوله بعد أن بيّن العلم بطريقة دقيقة واضحة أثر الأسرة والمجتمع فى تنمية بعض الاستقرارات أو تعطيل غيرها، بل فى خلق بعض الاتجاهات.

ومع ذلك فمن العبث أيضاً أن ننظر إلى عقل الانسان وصفاته الخلقية على أنها من خَلْق المجتمع. ذلك أنه إذا كان الفرد يتلقى عن المجتمع لغته الأولى وكثيراً من تقاليده وعاداته. فمما لا شك فيه أيضاً

أن الفردَ يُخضع المجتمع لتفكيره ويجعله مادة له وموضوعاً لدراسة لما امتاز به عقله من فاعلية وذاته من حرية أصيلة. ولولا هذا الأثر الفردى لاستحال تعليل التقدم الانسانى على يد أفراد جاهدوا فى سبيل هذا التقدم رغم مناهضة المجتمع لهم ورغم ما يتصف به العقل الجمعى من طغيان ونزوع إلي الرجعية.

فالمنهج التكاملى يعين للذات الإنسانية مكانتها بالنسبة للمجتمع. فإذا كان الإنسان يخضع كفرد للنظم الاجتماعية فانه كذات مفكرة حرة يعلو فوق المجتمع ويسمو عليه ويصبح عاملاً من عوامل تقدمه.

ونخلص من هذه الافتتاحية إلى أن المنهج التكاملى يدعو إلى اللبرالية بطريقة غير مباشرة إذا قصدنا باللبرالية علو الفرد على المجتمع من أجل تقدم المجتمع. واللبرالية، من هذه الزاوية ضد الدوجماطيقية التى تسلتزم استكانة الفرد لجمود العقل الجمعى.

وكان مصطفى زيور واضحاً فى موقفه من الدوجماطيقيه فى محاضرته الهامة عن «سيكولوچية التعصب» والتى ألقاها فى ١٠/ ٢/ ١٩٥٢ فى الجمعية المصرية للصحة العقلية والمنشورة فى المجلة فى عدد مايو ١٩٥٢.

قال : إننا على استعداد لتجنيد قوانا لهذا البحث وأمثاله - يقصد التعصب - لأنه من غير المعقول ولا المقبول أن يقتصر عمل المشتغلين بعلم النفس فى مصر على تلقين الطلاب تجارب فى المتاهة أو تقدم العلاج النفسى لفرد مريض ثم يقفون مكتوفى الأيدى إذا نمت بمجتمعنا. إن الوقت وقت تجنيد العقول. فالعلم الذى لا يستطيع أن يسخر نفسه لخير الأمة فلا خير فيه.

على أننا معشر المشتغلين بعلوم النفس نعلم أن النفس الإنسانية تنفر من الكشف عما يدور فى حناياها من ميول وتكره أن تواجه فى اخلاص ما تنطوى عليه من نزعات. ونؤمن بقول نيتشه «إن الأخطاء تنجم أكثر ما تنجم من الجبن عن مواجهة الحقائق. لأبد لنا أذن من أن نستبدل بسياسة النعامة سياسة التبصر. ولم يصل علم النفس إلى شيء ذى جدوى إلا بعد أن استطاع أحد رواده أعنى فرويد ألا ويخجل من أن يفتح عينيه على ما يدور فى قرارة نفسه مهما كان بغيضاً. ص ٢٨٦.

ومعنى ذلك أن التعصب، فى رأى زيور، بغيض. وهو لذلك يحاول أن يكشف عن جذور هذا الذى يبغضه فيرى أنه ظاهرة اجتماعية لها بواعثها النفسية ولا يغير من الأمر شيئاً أن يكون التعصب

ديناً فالتعصب الديني لا يختلف عن أي نوع من أنواع التعصب التى تنشأ بين الأجناس أو بين الأحزاب السياسية أو بين المذاهب الاجتماعية. ص ٣٠٠ والمتعصب يجنى فى موقفه كسباً يتلخص فى التنفيس عما يعتلج فى النفس من كراهية وعدوان مكبوت. غير أن هذا الكسب لا يختلف عما يجنيه العصابى من سلوكه الشاذ، أى أنه كسب وهمى. ومعنى ذلك أن المتعصب يحيا على وهم والوهم يعنى رؤية الواقع ليس من حيث هو أى أن الوهم تشويه للواقع.

ولكن ما الذى يدفع الانسان إلى الوقوع فى براثن الوهم. إن التحليل النفسى الذى مارسه زيور من حيث هو مساعد للطب السيكوسوماتى قد كشف له عن جذور هذا الوهم الملازم للتعصب.

فى بحث له عنوانه العدوان ونور الچيا ما بين الضلوع أكتوبر ١٩٤٥ يحلل حلماً لأحد مرضاه فيكتشف أنه خاضع لانسان يظهر له فى الحلم على أنه الباشا وهو فى نظر زيور السلطان والسلطان هو صاحب الأمر المطلق. ولا أدل على ذلك من قوله لما كان وجود فرد أو جماعة لا يذعنون لما نذعن له ولا يعبدون ما نعبد قوم دليلاً علي أن السلطان الذى أذعنا له غير مطلق فإن هذه الجماعة تصبح أشبه شيء بمحرض لدوافع الكراهية (ص ٢٩٢) والنتيجة محاربة الكافر بما نؤمن به.

إذن ثمة علاقة بين مفهوم التعصب ومفهوم المطلق بيد أن زيور لا يقف عن هذا الحد وإنما يتعداه إلى دراسة التعصب فى منطقة الشرق الأسط فيلحظ أن الروابط الدينية في الشرق الأوسط تفوق فى قوتها غير من الروابط ويرد ذلك إلى ضعف الرابط الثقافية الأخرى ولهذا فان الرابطة الدينية فى الشرق الأوسط تقدم مقام الرابطة القومية فى الغرب. ومن شأن الرابطة الدينية أحداث التباعد الاجتماعى بين الطوائف الدينية وهو يشبه ذلك بالتباعد بين عرب فلسطين واليهود.

وأظن أن قسم علم النفس فى كلية الآداب هى الكلية التى كان يقوم بالتدرب فيها مصطفى زيور كفيل أن يستكمل ما لم يستكمله مضنطفى زيور فى مسألة التعصب وعلاقتها بالطب السيكوسوماتى وعلم النفس التكاملى.

أ.د مراد وهبه

مصطفى زيور .. عقل عالم وقلب إنسان
(عود على بدء)

د. فرج عبد القادر طه

أستاذ علم النفس بكلية الآداب - جامعة عين شمس

وعضو المجمع العلمى المصرى

أساتذتنا الأجلاء، وزملاءنا الفضلاء؛ حضور هذه الاحتفالية؛

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته؛ وبعد ؛؛؛

أبدأ أولاً بتقديم الشكر لكل من فكر فى إقامة هذه الاحتفالية وأعد لها. فهى بحق دليل وفاء لأستاذ عظيم وعالم جليل؛ هو أستاذنا المرحوم مصطفى زيور، أستاذ جيل علماء النفس فى وطننا العربى ومتخصصيه، ولا أعدو الحقيقة إن قلت أيضاً والأطباء النفسيين والوفاء - كما تعلمون وحضراتكم - من شيم الكرام، فالاعتراف بالفضل وتذاكره واجب على كل من ناله خير، أو أُسدي إليه معروف. كما أضيف إلى هذا الشكر شكراً آخر على اختيارى ضمن أساتذتى الأفاضل الذين يتحدثون فى هذه الاحتفالية ويتذاكرون.

---

* مضمون الكلمة التى ألقيت فى الحفل التكريمى الذي أقامته كلية الآداب بجامعة عين شمس يوم الثلاثاء ٢٩ أبريل ٢٠٠٣، ذكرى ووفاء لأساتذتها الرواد؛ وخصت به المرحوم الأستاذ الدكتور مصطفى زيور مؤسس قيم علم النفس بالكلية.

وتذكر فى هذه الاحتفالية بحيرتى فى اختيار عنوان لمقال كتبته عن زيور تحية وتهنئة له بمناسبة حصوله على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٨٨، نشرته بمجلة «علم النفس» فى أول عدد لها يصدر بعد منحه الجائزة (عدد اكتوبر - ديسمبر ١٩٨٨)، وبعد هذه الحيرة لم أجد أفضل من اختيار هذا العنوان الذى أعود إليه الآن، لأنه يصفه أدق وصف، وينطبق عليه أيما انطباق، ويُميِّزه غاية التميز. ولقناعتى بذلك فإنى عندما دعتنى مجلة «أدب ونقد» للمشاركة فى الكتابة عن زيور بالملف الذى قدمته عنه على عددين متتايين (سبتمبر ١٩٩٤ وأكتوبر ١٩٩٤) كان مقالى فى العدد الأول من هذا الملف تحت العنوان ذاته كعوْد على بدء. وعندما دعتنى الهيئة المصرية العامة للكتاب للحديث عن زيور فى ٢٢/ ١/ ١٩٩٥ بمعرض القاهرة الدولى للكتاب اخترت العنوان نفسه لحديثى. وحينما تفضلت الهيئة المنظمة لاحتفاليتنا الحالية بدعوتى للحديث وطلبت عنواناً له؛ ها أنذا أفضل العودة مرة أخرى إليه.

ولد أستاذنا زيور فى شهر سبتمبر من عام ١٩٠٧، وتدرج فى مراحل التعليم، وجاب كثيراً من دروبه المتنوعة حتى أصبح على تكوين علمى متميز ومتفرد. فقد حصل على درجة الليسانس فى الفلسفة من كلية الآداب مع أول دفعة تتخرج من الجامعة المصرية عام ١٩٢٩

(جامعة القاهرة الآن). ثم سافر إلى فرنسا حيث حصل على شهادة الفلسفة العامة والمنطق من جامعة السربون فى العام التالى (١٩٣٠). وفى عام ١٩٣٨ حصل على شهادة العلوم الطبية الكيميائية والبيولوچية، ثم على دبلوم الدراسات العليا فى علم النفس التجريبى عام ١٩٣٩. وفى عام ١٩٤١ حصل على درجة الدكتوراة فى الطب من جامعة ليون؛ حيث اضطرته ظروف الحرب العالمية الثانية آنذاك إلى ترك باريس إلى ليون. ولقد كان تحوله إلى الدراسة العلمية فى الطب من أجل أن يتيح له ذلك دراسة التحليل النفسى والتخصص فيه؛ حيث كان هذا شرطاً لكثير من معاهد التحليل النفسى آنذاك. وهكذا التحق مصطفى زيور بمعهد التحليل النفسى فى باريس، وقضى فيه نحو أربع سنوات درس فيه التحليل النفسى وتدرب عليه، حيث حصل علي دبلوم التحليل النفسى، وعلى زمالة جمعية باريس للتحليل النفسى، ثم زمالة الاتحاد الدولى للتحليل النفسى بعد ذلك. وبهذا أصبح أول محلل نفسى مصرى؛ بل وعربى أيضاً يحصل على هذه الزمالة. وأثناء إقامته فى فرنسا، لاستكمال دراساته العلمية العليا، والتى امتدت بضع عشرة سنة تقدم إلى عدة مسابقات فى أمراض الجهاز العصبى والطب العقلى ظفر فيها بوظيفة طبيب مقيم بمستشفى تعليمى تابع لكلية الطب بجامعة باريس، مما أتاح له فرصة القيام بمهام تعليمية لطلاب الطب،

وبمهام علاجية للمرضى، هذا عـلاوة على البحوث العلمية التى نشرها آنذاك فى الدوريات المتـخصصـة فأكسـبته شـهرة كبـيرة وريادة علمـية معترفاً له بها. وفى هذه الأثناء وصل إلى منصب رئيس عيادة الأمراض النفسيـة بكلية الطب بجامعة باريس قـبل عودته إلى القاهرة فى أواسط الأربعـينيـات من القـرن الماضى للعـمل عـضـواً بهيـئـة التـدريس فى الجامعات المصرية.

ومن الاستـعراض الموجز السـابق لإعداد زيور العلمى يتـبين لنا كيف وصل إلى الدرجـات العليـا فى التـخـصص الطبى والنفـسى والتـحليلى النفسى، علاوة على تخـصصه الأساسى فى الفلسفة، مما كـون لديه عقلية عالم مـفكر موسـوعى التخصص والثـقافة والإهتـمام. وهكذا اشـتركت الجامعـة الفرنسية مع الجـامعة المصرية فى مزج الثـقافة الغربيـة مع العربية مكونة عقلية مستنيرة. وذاك فى مرحلة اجتماعية كانت الثقافة المصرية فيها تموج بتيارات الاستنارة الجادة فى مخـتلف جوانبها، فكان هناك طه حسين وتوفـيق الحكيم وعبـاس والعـقاد ومـحمـد حسين هـيكل ولطفى السيـد ومحـمد كامل حـسين وجمـال حمدان ونجـيب محفـوظ ومصطفى عـبد الرازق وزكى نجيب مـحمود ويوسف مراد ... وأستـاذنا مصطفى زيور ... وغيرهم كثير ممن تفخر بهم الثقافة المصرية والعربية، وتعتز كثيراً ... كثيراً.

فإذا أضفنا إلى هذا التكوين العلمى الفريد فى تميزه رغبة متوقدة فى الاطلاع على ما تنشره الدوريات العلمية، والمؤلفات الموسوعية، والمراجع الشاملة فى التخصصات الأربعة التى ألم بها زيور (الطب، وعلم النفس، والتحليل النفسى، والفلسفة)، مع اهتمام شديد بالقراءة فى مجال الفكر والثقافة والأدب السياسة، تبين لنا صدق رؤيتنا فيما قدمناه من أن مصطفى زيور امتاز بين علمائنا الأجلاء بتكوين متفرد مُمْعِن فى الموسوعية والشمول، متعدد فى التخصص العلمى، ضارب بجذور بعيدة الغور فى جوانب العلم الأكاديمى والفكر الرنسانى، وفروعهما المختلفة. ومن المتوقع - ومن المنطقى أيضاً - أن يقابل هذا التكوين العقلى والإعداد الأكاديمى المتفرد المتميز والذى تسنده ثقافة موسوعية نشاط علمى يعادله فى المستوى. وهذا ما تحقق بالفعل.، فلقد مارس زيور مهمة التدريس منذ الأربعينيات من القرن الماضى وإلى ما قبل وفاته عام ١٩٩٠ ببعض سنين قليلة فى جامعات مصر الكبرى الثلاث (جامعة فاروق الأول، وجامعة إبراهيم ، وجامعة فؤاد الأول والتى تحولت على التوالى إلى أسمائها الحالية المعروفة : جامعة الاسكندرية، وجامعة عين شمس، وجامعة القاهرة، فدرّس فيها مواد علم النفس العام، والتحليل النفسى، وعلم النفس المرضى، الطب

النفسى، وعلم نفس الطفل بكليات الآداب وكليات الطب. فكان فى كل ذلك مثالاً للأستاذ الجامعى الحق، المتمكن من مادته، والقادر على شرحها لطلابه ونقلها لتلاميذه، والموضوعى فى تقييمه، والإنسانى فى علاقته، والذى يترك لتلاميذه حرية اختيار وجهات النظر المختلفة حتى لو خالفته، وتبنى ومناقشة الرؤى العلمية المختلفة؛ فاتحاً لهم صدره دون تبرم، وعقله دون انغلاق. فلم يكن يفرض عليهم وجهة نظر معينة تنتهى بهم جميعاً إلى أن يصبحوا نسخاً كربونية متشابهة من أستاذهم وفكره ورؤاه، والنسخ الكربونية - كما نعلم - لا تعادل أصالة الأصل وتميزه عادة، ولا تساويه قيمة. بل إن زيور كان يشجع تلاميذه على أن يختار كل منهم اتجاهه العلمى الخاص، ورؤاه واهتماماته المميزة، بما هو كائن إنسانى متفرد الإستعدادات والظروف والتكوين الشخصى، وذلك حتى تتفتح كل إمكانياته دون ضغط عليه، أو قولبة له. وهكذا يمثل كل تلميذ من تلامذة زيور المتميزين شخصية مختلفة متفردة فى اهتماماتا ورؤاها ونوعية اسهاماتها، تتصف بطابع مميز فى انتاجها العلمى ورؤاها الفكرية، يجمع غالبتيهم بين خاصية العالم وخاصية المفكر، وهاتان صفتان يندر عادة أن يجتمعا لشخص .

ولو أردنا فى عجالة أن نشير إلى بعض نشاط زيور العلمى لوجب علينا أن نذكر أن طه حسين ومن حسن حظ - جامعة عين شمس - قد وقع اختياره فى أوائل الخمسينيّات من القرن الماضى على مصطفى زيور لينشئ ويرأس قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، والتى كانت تسمى وقتها بجامعة إبراهيم. فقام بإنشاء هذا القسم مشتركاً مع قسم الإجتماع فى السنتين الأوليين من الدراسة الجامعية، ليستقل كل منهما فى السنتين الأخيرتين. وبعقلية العالم التى تكرس الموضوعية، وتحارب التعصب وتمقت ضيق الأفق، قام بوضع برامج القسم واختيار مواده العلمية وأساتذته الذين يعتمد عليهم فى تحقيق أهداف، بحيث يحقق فى كل هذا انفتاح قسم علم النفس على كافة التيارات العلمية المشروعة والتخصصات الأخرى المختلفة التى تخدم علم النفس مثل علم الاجتماع، والأنثروبولوچيا، وتاريخ الحضارة، والفلسفة، والنقد الأدبى ، والاحصاء. وهكذا لم يكن هذا القسم كما كان متوقعاً من محلل نفسى ينشئه ويرأسه عاماً بمواد التحليل النفسى ومدارسه وتدريباته، بحيث يصبح أقرب الشبه. بمعهد للتحليل النفسى الذى يعتبر زيور بحق رائده فى مصر والعالم العربى، بل كان - وما زال - قسما لعلم النفس بمختلف تياراته وروافده؛

يتكامل فيه تيار التحليل النفسى مع تيار التجريب مع التيار الإكلينيكى مع تيار علم النفس الاجتماعى مع تيار علم النفس الصناعى والتنظيمى .. لينتهى كل ذلك إلى إعداد أخصائى نفسى شامل النظرة عميقها إلى الظاهرة النفسية؛ دونما تعصب لزاوية نظر معينة تعميه عن إدراك الجوانب والمسببات المختلفة للظاهرة، وتقعده عن الإحاطة بعواملها، وتضيق عليه الخناق فى فهمها وتفسيرها. وهكذا؛ استعان فى التدريس لهذا القسم بزملاء له وتلاميذ من تيارات علمية مختلفة كان منهم المرحوم يوسف مراد، والمرحوم عبدالقادر القط، والمرحوم السيد محمد خيرى، والمرحوم لويس كامل مليكة، والمرحوم سيد عبدالحميد مرسى والمرحوم أحمد وجدى. كما كان من بينهم أيضاً مصطفى صفوان، وسامى محمود على، وعز الدين اسماعيل، وفؤاد زكريا، وأحمد فائق، وعبدالمنعم المليجى، وأحمد عكاشة. وكان هذا انعكاساً واضحاً لعقلية العالم فى مصطفى زيور وموضعيته واستنارته، إضافة إلى تعدد تخصصاته الأكاديمية وموسوعيته.

هذا؛ وفى مجال إعداد طلاب الدراسات العليا وأساتذة علم النفس؛ نذكر أنه قد تخرج على زيور عشرات التلاميذ الذين يحملون درجات الماچستير والدكتوراة فى علم النفس، إضافة إلى عشرات

المريدين الذين تشربوا عقلانية علمه، واستنارة عقله، وشمولية فكره، وإنسانية نزعاته واتجاهاته. وكل هؤلاء وأولئك ينتشرون الآن فى الجامعات والمراكز العلمية المصرية والعربية والعالمية. ويكفى أن نذكر من بينهم مصطفى صفوان (أستاذ التحليل النفسى وعالم اللاكانية بباريس)، وسامي محمود على (مدير معهد الطب السيكوسوماتى بباريس)، وأحمد فائق (المحلل النفسى وأستاذ التحليل النفسى بكندا).

أما فى مجال الإسهامات العلمية؛ فقد كان لزيور فضل الريادة فى دراسات وبحوث الأمراض السيكوسوماتية Psychosomatics (وهى الأمراض جسمية المظهر والتى تعود فى أسبابها الجوهرية إلى عوامل ومسببات نفسية). وتكفى قراءة مقالاته وبحوثه المنشورة عنها فى «مجلة علم النفس» التى كانت تصدر عن دار المعارف بمصر بين عامى ١٩٤٥، ١٩٥٣) للتدليل على ذلك. بل إن مصطفى زيور، ومنذ وقت مبكر لاكتشاف هذه النوعية من الأمراض ونشر بحوث عنها شارك على المستوى العالمى ببحوث ودراسات نشرت بالخارج؛ كان بعضها فى الدوريات الطبية الفرنسية. ولهذا لم يكن مستغرباً أن يكون أول مدير لمعهد الطب السيكوسوماتى الذى أنشىء بباريس هو سامى

محمود على، أحد تلاميذ زيور. واعترافاً بهذه الريادة والأصالة فى بحوث ودراسات زيور فى مجال الطب السيكوسوماتى نشرت الإنسيكلوبيديا الطبية الفرنسية له كتابات عنها. كما يشير محمد أحمد النابلسى (رئيس الجمعية اللبنانية للدراسات النفسية ورئيس تحرير مجلة الثقافة النفسية المتخصصة التى تصدر فى لبنان) فى مقاله «جولة فى آفاق السيكوسوماتيك» إلى ذلك قائلاً : «وهنا لا يسعنا إهمال الأدوار الرائدة التى لعبتها مقالات ومؤلفات أساتذة عرب من أمثال مصطفى زيور وسامى على. وأعمالهما تشكل إرهاصات أساسية على الصعيد العالمى فى ميدان الطب النفسى - الجسدى (السيكوسوماتيك)» . (محمد أحمد النابلسى : ٢٠٠١؛ ٦٥)

وفى مجال نشر الثقافة العلمية الجادة نجد أن لزيور باعاً طويلاً فى ذلك. فلقد اشترك مع زميله وأستاذنا المرحوم يوسف مراد (أستاذ علم النفس آنذاك بكلية الآداب - جامعة فؤاد الأول - القاهرة حالياً) فى إصدار «مجلة علم النفس»، والتى كانت تصدر ثلاث مرات فى السنة؛ وظلت هكذا لمدة ثمانى سنوات من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٣، والذى أعلن فيه عن توقف المجلة عن الصدور تحت عنوان حزين تصدر العدد يقول «صوت آخر يسكت». وكانت دار المعارف بمصر

تقوم بنشر هذه المجلة. ولقد كانت «مجلة علم النفس» هذه مثلاً طيباً للمجلات العلمية والثقافية الجادة والملتزمة حتى ذاع صيتها واقبل على النشر فيها كبار العلماء من أنحاء العالم مثل سيرل بيرت، وبول فريس، وجون ويزدم، وشارلس فالنتين، وهو راس إنجليش. ومثل أيضاً هنرى فالون عالم النفس الفرنسى المعروف والذى نشر مقاله الشهير «أثر الآخر فى تكوين الشعور بالذات Le role de "L`autre" dans la conscience du moi » فى المجلة بعددها الأول بمجلدها الثانى (يونيو ١٩٤٦) وترجمة يوسف مراد فى العدد التالى (أكتوبر ١٩٤٦). وكانت المجلة تنشر هذه المقالات بلغاتها الأجنبية ثم تترجمها أو تلخصها بالعربية فى الأعداد التالية. كما كانت مجلة «الملخصات السيكولوچية Psychological Abstracts» التى تصدرها جمعية علم النفس الأمريكية تتولى نشر ملخصات عما يصدر فى «مجلة علم النفس» المصرية. وما كان هذا متاحاً لولا جدية رئيسى تحرير المجلة (يوسف مراد ومصطفى زيور) وسمعتهما الطيبة فى الأوساط العلمية العالمية. ولا شك فى أن «مجلة علم النفس» تعتبر خير شاهد على جدية الثقافة المصرية، والتزامها النزعة العلمية والعقلية التنويرية، وولائها القومى فى ذلك العصر. ولقد كان من الملفات للنظر

احترام كبار المسئولين الرسميين فى الحكومة والمجتمع وقتها للثقافة العلمية الجادة وتشجيعهم لها وللشخصيات العلمية البارزة، حتى فى رتبهم الوظيفية الأولى (حيث كان كل من يوسف مراد وصطفى زيور وقتها فى وظيفة مدرس بالجامعة - وهى كما نعلم بداية سلم أعضاء هيئة التدريس بالجامعة) لدرجة أن يشترك فى تقديم العدد الأول من «مجلة علم النفس» كل من أحمد لطفى السيد (رئيس مجمع اللغة العربية)، وعلى إبراهيم مدير (رئيس) جامعة فؤاد الأول (التى يعمل بها المدرس مصطفى زيور)، وسليمان عزمى (عميد كلية الطب بجامعة فؤاد الأول)، وعبدالوهاب عزام (عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول) وذلك بكلمات تقدير وتشجيعيه وينبغى علينا هنا أن نوجه الشكر إلى محمد النابلسى صاحب ورئيس تحرير مجلة «الثقافة النفسية» التى تصدر عن بيروت لإعادته نشر العدد الأول من «مجلة علم النفس» بصورة فنية رائعة روعى فيها التطابق الكبير بين ألوان الغلاف الورق والشكل العام للعدد، وذلك على نفقة مجلته.

ولقد وصل زيور خدمته - أيضا - للثقافة العلمية الجادة برئاسته تحرير «مجلة الصحة النفسية» فى أول صدورها عام ١٩٥٨ عن الجمعية المصرية للصحة العقلية. كما أنه أشرف على إصدار مجموعة

«المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى» والتى كانت تنشر ترجمات لكتب ومراجع أساسية فى التحليل النفسى عن دار المعارف بمصر تباعاً، مع دراسة لكل منها بقلم زيور تُعد فى حد ذاتها إسهاماً أصيلاً وجاداً فى موضوع الكتاب. وذلك مثل كتب فرويد : «تفسير الأحلام» الذى ترجمه مصطفى صفوان، و«الموجز فى التحليل النفسى» الذى ترجمه سامى محمود على وعبدالسلام القفاش، و«مقدمة فى التحليل النفسى» الذى ترجمه اسحق رمزى، و«حياتى والتحليل النفسى» الذى ترجمه مصطفى زيور وعبدالمنعم المليجى. هذا؛ إضافة إلى إشرافه على مجموعة كتب علمية وثقافية أخرى مؤلفة أو مترجمة باسم «مكتبة الدراسات النفسية والاجتماعية» قدم فيها كتب تناولت موضوعات هامة فى مجالات الدراسات الإنسانية المختلفة؛ مثل كتاب «الإنسان والحضارة فى العصر الصناعى» من تأليف فؤاد زكريا، وكتاب «فصول فى علم النفس العسكرى» تأليف محمد عاطف السعيد، وكتاب «المجمل فى التحليل النفسى» من تأليف دانييل لاجاش وترجمة مصطفى زيور وعبد السلام القفاش، وكتاب «قصة علاجى بالتحليل النفسى». تأليف جون نايت وترجمة عبدالسلام القفاش ومحمد عاطف السعيد.

وفى الخمسينيات من القرن الماضى عندما كانت الإذاعة المصرية تخصص فقرات فيها لمحاضرات وكلمات يلقيها كبار المفكرين والعلماء والأدباء أمثال طه حسين وعباس العقاد أفردت الإذاعة المصرية لمصطفى زيور سلسلة من الأحاديث فى التحليل النفسى؛ كان كل منها بمثابة محاضرة قيمة ودرساً شيقاً عن موضوع أو مشكلة عامة، كالقمار، والنسيان، والضمير، والقلق النفسى، والحب، والأحلام، والتناقض العاطفى ... وقد نشرتها وزارة الإرشاد القومى (آنذاك) بعد إذاعتها ضمن كتاب بعنوان «فى التحليل النفسى» صدر فى سلسلة «متخارات الإذاعة». كما استدعته بعض الهيئات العلمية والاجتماعية لإلقاء محاضرات عامة يبرز فيها وجهة نظر علم النفس فى بعض المشكلات والقضايا المثارة.

وهنا تبرز النزعة الإنسانية، والفلسفة الزيورية، والولاء الوطنى، الذى كان يميز زيور دائماً، والهم العام الذى كان يملؤه على مصره ومواطنيها، وعلى عروبته ومستقبل بنيها. إضافة إلى استنارته العقلية، وعمق تحليلاته العلمية، وسلامة توقعاته المستقبلية. ولا يسعنى المجال إلا لإيراد مثال على ما ذكرت من محاضرة له ألقاها فى العاشر من فبراير عام ١٩٥٢ من «مجلة علم النفس» تحت عنوان «سيكلوچية

التعصب»؛ ففى صدرها يقول : «أطرح أمامكم اليوم إذن موضوع سيكلوچية التعصب بوصفه مشكلة من مشاكل الصحة لاعقلية فى مصر. وبعبارة أخرى إننا نسلم فى بداية هذا الحديث بأن التعصب إذا وصل إلى درجة معينة من الحدة يصبح عاملاً من عوامل تفويض وحدة المجتمع، وينم عن اضطراب فى ميزان الصحة العقلية الاجتماعية، مما يفسد تماسك المجتمع ويهدد كيانه. فالأمر لا يختلف فى نظرنا عما يحدث للفرد عندما تستبد به عوامل الصراع الداخلى فتعتل شخصيته، ويختل توازنه، ويصبح فى عداد المرضى» (ص ٢٨٥) ... «وإن طرحنا لهذه المشكلة للبحث يفترض أمرين : الأول أننا نؤمن بأننا رزاء ظاهرة من الظاهرات التى تقبل البحث، وأنه لابد لنا من فهم لأسباب العلة وأصولها إذا أردنا لها علاجاً ناجحاً. والأمر الثانى أننا على استعداد لتجنيد قوانا لهذا البحث وامثاله، لأنه من غير المعقول ولا المقبول أن يقتصر عمل المشتغلين بعلم النفس فى مصر على تلقين الطلاب تجارب الفيران فى المتاهة، أو تقدم العلاج النفسى لفرد مريض، ثم يقفون مكتوفى الأيدى إذا حلت غمة بمجتمعنا. إن الوقت وقت تجنيد القوى، فالعلم الذى لايستطيعه أن يسخر نفسه لخير الأمة لا خير فيه» ص ٢٨٦. على أنه منذ البداية ينبهنا إلى الصعوبة

التى تواجهنا فى بحث مثل هذه المشكلة فيقول : «بقى أن مشكلة اليوم مشكلة شائكة من حيث إنها مصدر لانفعالات شديدة، ويكفى أن نذكر إن كلمة التعصب لم يرد ذكرها فى الصحف التى أشارت إلى مشكلتنا حتى تضح لنا أننا إزاء مادة قابلة للاشتعال، ينبغى أن نتناولها فى كثير من الرفق والحذر. على أننا نحن معشر المشتغلين بعلوم النفس نعلم أن النفس الإنسانية تنفر من الكشف عما يدور فى حناياها من ميول، وتكره أن تواجه فى إخلاص ما تنطوى عليه من نزعات، ونؤمن بقول نيتشة : «إن الأخطاء تنجم أكثر ما تنجم من الجبن عن مواجهة الحقائق». لابد لنا إذن من أن نستبدل بسياسة النعامة سياسة التبصر، إذا كنا نؤمن بأن خير وسيلة لضبط الانفعال إنما هى تحليل الانفعال». ص ٢٨٦. وزيور هنا يحثنا على الشجاعة فى مواجهة النفس، والاحتشاد بالهمة المخلصة لبحث الظواهر الاجتماعية الخطيرة التى تواجه مجتمعنا بحثاًعلمياً خالصاً نصل به إلى عواملها ومسبباتها الحقيقية حتى نستطيع أن نعالجها أو نقاومها، ليستعيد مجتمعنا عافيته فينطلق فى النمو والإزدهار.

ثم إن زيور يعلن موقفه الصريح من مشكلة التعصب باعتباره عالماً موضوعياً، ملتزماً بقضايا بلده، مهموماً بمشكلاتها فيقول : «وبعد فإن

القضية الأولى فى هذا البحث أن التعصب ظاهرة اجتماعية لها بواعثها النفسية، ولا يغير من الأمر شيئاً أن يكون التعصب دينياً، فقليل من التفكير يدلنا على أن التعصب الدينى لا يختلف لافى مبناه ولا فى معناه عن أى نوع من أنواع التعصب التى تنشأ بين الأجناس أو بين الأحزاب السياسية أو بين المذاهب الاجتماعية وما إلى ذلك» ص ٢٨٧. ثم يمضى زيور فى مقاله فيعرض حالات من العيادة النفسية كاشفاً البواعث النفسية لظاهرة التعصب، ومحللاً لها بإضافة.

ومن حسن الحظ أن حسين عبدالقادر - تلميذ زيور المخلص - قام بجمع ماكتبه زيور ونشره من بحوث ومقالات فى كتاب بعنوان «فى النفس - بحوث مُجمَّعة» نشرته مكتبة «دار النهضة العربية» بيروت عام ١٩٨٦، قبل وفاة أستاذنا بحوالى أربعة أعوام فقط.

هذا، وعندما شرع المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى القيام ببحث ميدانى شامل عن تعاطى المخدرات فى مصر، أسند إلى مصطفى زيور رئاسة هيئة البحث، حيث قام بتكوينها فى عام ١٩٥٧ بشكل نموذجى؛ إذ ضمت خبراء واستشاريين وأساتذة فى علم النفس، والطب، والاجتماع، الإحصاء.واستمر رئيساً لها ومشرفاً عليها حتى

عام ١٩٦٥، حيث صدر خلال هذه المدة من رئاسته وإشرافه تقريران في مجلدين كبيرين عن هذا البحث وما عقد حوله من من ندوات، قام بنشرهما المركز القومى (الأول عام ١٩٦٠، والثانى عام ١٩٦٤).

وكان زيور - أيضاً - رئيساً للجنة علم النفس التى اختصت بكتابة المصطلحات النفسية التيى ضمها «معجم العلوم الاجتماعية» الذى أصدرته اليونسكو بالإشتراك مع «مجْمع اللغة العربية» بالقاهرة بمراجعة إرباهيم مدكور، ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٧٥. كما أنه قد ترجم لأعلام علم النفس فى «معجم أعلام الفكر الإنسانى». والذى قام بتصديره إبراهيم مدكور، ونشرت الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة جزءه الأول عام ١٩٨٤، على أمل بنشر الأجزاء التالية تباعاً.

كما كان زيور أول رئيس للجنة العلمية لجمعية الطب النفسى (وهى أحد فروع الجمعية الطبية المصرية). وكان أيضاً مقرر اللجنة علم النفس بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. كما أنه قام بتمثيل مصر فى كثير من المؤتمرات العلمية العربية والعالمية وألقى فيها بحوثاً علمية أصيلة وجادة نالت تقدير الأوساط العلمية واهتماماتها. من ذلك على سبيل المثال تمثيله لمصر فى أول مؤتمر دولى

للطب النفسى والذى عقد بباريس عام ١٩٥٠، وتمثيله لمصر فى المؤتمر الدولى السابع عشر لعلم النفس (عام ١٩٦٠).

وفى عام ١٩٧٣ يختار «المجمع العلمى المصرى» مصطفى زيور عضواً به، وهو توأم الأكاديمية الفرنسية اللذين أنشأهما نابليون منذ أكثر من مائتى عام؛ والذى يضم حوالى المائة وخمسين عالماً مصرياً وأجنبياً من تخصصات علمية مختلفة تمثل كل فروع العلوم. فكان هذا تكريماً كبيراً له يستحقه عن جدارة، باعتباره أحد علماء مصر المعدودين. وحسبنا أن نشير إلى أن مهدى علام قد اختير عضواً معه فى نفس العام. وفى عام ١٩٨٨ تمنحه مصر جائزتها التقديرية فى العلوم الاجتماعية. ونعتقد أنها تأخرت عليه كثيراً، إذ أنها كثيراً ما تخطئ الجديرين حقاً بها. فينالها كثير من ذوى الشهرة الزائفة والمتزلفين لكبار المسئولين عنها، ومعاذ اللّه أن يرضى زيور لنفسه مكانة هؤلاء.

وعلاة على هذا وذاك؛ فقد أخلص زيور لعيادته النفسية الخاصة حيث يقابل مرضاه ويعالجهم فيشفيهم مما عانوا منه، ويعيد إليهم صحتهم النفسية، ويخفف عنهم آلام المرض والصراع النفسى، ويعيدهم أصحاء قادرين على العطاء لأسرهم، والبناء لبلدهم،

والاستمتاع بالراحة النفسية والحياة السوية. ولقد ظل زيور يؤدى دوره هذا دون انقطاع منذ عودته من فرنسا فى أربعينيات القرن الماضى حتى أقعده المرض قبل الوفاة بحوالى سنتين أو ثلاث على الأكثر.

وفى عام ١٩٨١ رأت مجلة «الفكر العربى المعاصر» التى يصدرها مركز الإنماء القومى ببيروت أن تخصص عدداً يدور محوره حول «التحليل النفسى وإنسان العصر» فاتصلت بزيور ليصدره بمقال شديد الأهمية بعنوان «عبقرية فرويد». وقد أسهم تلامييذه ومريدوه فى كتابه الجانب الأكبر من هذا العدد (عدد ١١، أبريل ١٩٨١).

هذا، وعندما ارتأت لبنان (ممثلة فى جمعيتها للدراسات النفسية، ومركز الدراسات النفسية والنفسية - الجسدية،، ومجلة الثقافة النفسية المتخصصة) أن تنشئ جائزة عربية سنوية لواحد من علماء النفس أو الطب النفسى فى العالم العربى؛ اختارت إسم مصطفى زيور لتطلقه على هذه الجائزة؛ وذلك اعترافاً بفضل زيور وتقديراً لريادته فى العالم العربى لهذين المجالين.

وفى باريس يصدر «معهد اللغة والحضارة العربية» عام ١٩٩٧ كتاباً تذكارياً بعنوان : «مصطفى زيور : فى ذكرى العالم والفنان

والإنسان» يصمنه ندوة تذكارية أقيمت بباريس تكريماً لزيور مع كتابات أخرى له وعنه أسهم فيها مصطفى صفوان وسامى على وأحمد فائق وحسين عبدالقادر؛ وأدارها وحررها أسامة خليل، وهى توأم لاحتفاليتنا هذه أقيمت فى فرنسا قبلنا بحوالى ست سنوات.

هذا؛ وما آسف عليه حقا - وأعتقد أن كثيرين من تلاميذه ومريديه يشاركونى الرأى نفسه - أن يرحل عنا مصطفى زيور دون أن يخلف لنا ضمن آثاره كتباً ثلاثة شاملة ومتكاملة : أحدهما فى أصول علم النفس، وآخر فى الأمراض النفسية، وثالثها موسوعة فى علم النفس والتحليل النفسى. ولئن قام بالفعل اثنان من تلاميذه بتحقيق هذه الأمنية، إلا أن قامة التلميذ يصعب أن تصل إلى قامة الأستاذ. ولنا أن نتصور عالماً فى مستوى التكوين العقلى والعلمى والثقافى الذى حظى به زيور، حيث حظى بأساس أكاديمى فى الفلسفة، وإعداد فى الطب حتى أعلى مستوياته، وتخصص فى التحليل النفسى على أعلى مستوى عالمى يقوم بتأليف كتاب متكامل فى كل مجال من المجالات الثلاثة التى ذكرتها؛ كم تكون هذه الكتب أصيلة !!، وكم تكون طروحاتها شديدة القيمة !!، وكم تكون إضافة هامة للتراث العلمى العربى.

كما أنى آسف - أيضاً وحقاً - أن زيور لم يخلف لمصر والعالم العربى أثراً نحن أحوج ما نكون إليه، هو إقامة معهد علمى للتحليل النفسى، على نحو ما هو منتشر فى بلاد العالم المتقدمة؛ يتخرج فيه المحللون النفسيون. وقد كان الأمر مواتياً تماماً لذلك فى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى؛ حيث كان يتواجد ويعمل بمقر وقتها محللون نفسيون معدون إعداداً أكاديمياً ومهنياً يصلحون للقيام بدور أساتذة بهذا المعهد مثل مصطفى صفوان، وسامى محمود على، وإسحق رمزى، وفايزة كامل. كما كان زيور فى قمة عطائه العلمى وقتها ونشاطه المهنى. لقد فاتت مصر هذه الفرصة الأكاديمية، كما فاتتها فرص أخرى كثيرة، نندم أشد الندم عليها حين لا يفيد الندم. فنحن الآن فى مصر - وللأسف الشديد - لانكاد نجد أستاذاً احداً مؤهلاً أكاديمياً ومهنياً يصلح أستاذاً للتحليل النفسى فى معهد كهذا، وكل ما هناك أن بعض المعالجين النفسيين الموجودين بمصر حالياً ليسوا محللين نفسيين بالمعنى المتعارف عليه عند أهل الاختصاص، بل إنهم معالجون نفسيون يستعينون ببعض من منهج التحليل النفسى ورؤاه، ويستفيدون منها أثناء مزاولتهم العلاج لمرضاهم.

وإذا كانت روح أستاذنا زيور قد فاضت إلى بارئها فى شهر سبتمبر من عام ١٩٩٠ (نفس الشهر الذى ولد فيه)، فإنه حيٌّ فى فكره، حي فى كتاباته، حي فى روحه الإنسانية التى نشر بها كثير من مريدية و طلابه، حي فى تلاميذه الذين يعرفون دائماً بفضله حي فى مجتمعه الذى كرس جهده وحياته لخدمته والإعلاء من شأنه، حي فى جامعته التى تقيم احتفالية اليوم تأكيداً لما نقول. رحمه الله رحمة واسعة.

مراجع ومصادر للاستزادة

١- إبراهيم مدكور (إشراف) : معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥. (أو أى من طبعاته).

٢- أسامة خليل ومصطفى صفوان وسامى على وأحمد فائق وحسين عبدالقادر. مصطفى زيور - فى ذكرى العالم والفنان والإنسان، معهد اللغة والحضارة العربية بباريس، باريس، ١٩٩٧.

٣- فرج عبدالقادر طه (إشراف) : موسوعة علم النفس والتحليل النفس (مدخل : زيور)، ط ١، دار سعاد الصباح، القاهرة - الكويت، ١٩٩٣. أو ط٢، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٣.

٤- فرج عبدالقادر طه : مصطفى زيور - عقل عالم وقلب إنسان، مجلة «علم النفس»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، عدد : ٨، أكتوبر - ديسمبر ١٩٨٨.

٥- فرج عبدالقادر طه : مصطفى زيور - عقل عالم وقلب إنسان : عود على بدء، مجلة «أدب ونقد»، القاهرة، عدد : ١٠٩، سبتمبر ١٩٩٤.

٦- محمد أحمد النابلسى : جولة فى آفاق السيكوسوماتيك، مجلة «الثقافة النفسية المتخصصة»، بيروت، عدد : ٤٦، مجلد : ١٢، أبريل ٢٠٠١.

٧- مصطفى زيور : فى النفس - بحوث مجمعة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦.

٨- مصطفى زيور : سيكلوچية التعصب، مجلة علم النفس، دار المعارف، القاهرة، عدد : ٣، مجلد : ٧، فبراير - مايو ١٩٥٢.

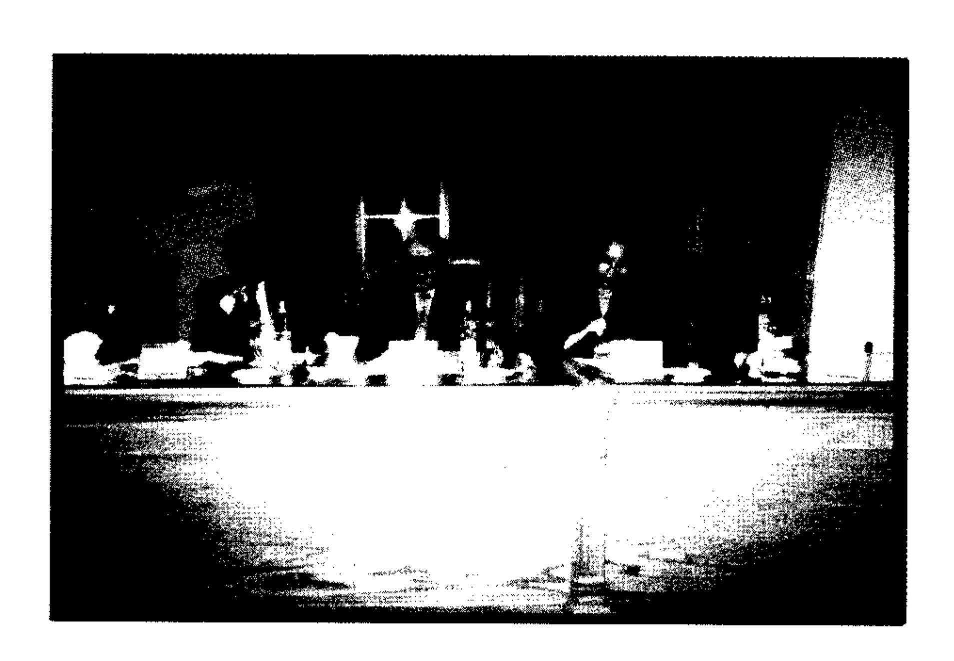
٩- يوسف مراد ومصطفى زيور (رئيس التحرير) : مجلة علم النفس، دار المعارف، القاهرة، عدد : ١، مجلد : ١، يونيو ١٩٤٥.

أســم الأب

أ.د. نيفين زيــور

أخترت سيداتى سادتى أن استهل كلمتى ببيت شعر للشاعر سيمح القاسم : -

«علمنى ابى أن اناطح طموح الشمس .·. قبل أن يعلمنى أن أكتب».



حاولت مرات ومرات أن اكتب عن أبى، فـوجدت الكلمات تضيع وسَط خليط من مشـاعر الشجن والحنين إلى المـاضى، إلى طفولتى إلى جواره. ليس من السـهل الكتابة عن اسم الأب وبخاصة حيـنما يحمل

اسم الاب ضياءً ورونقاً لايدانيه رونق آخرْ. فاسم مصطفى زيور اسمُ ابى الواقعى والرمزى.

سيداتى سادتى : لن اتحدث عن زيور المدرسة فربما سيتحدث غيرى من تلامذته عن ذلك اليوم لا ولن اتحدث عن زيور المعلم أو الفيلسوف أو الطبيب فكلها جوانب سيتحدث عنها غيرى. اخترت ان اتحدث عما يخصنى ساتحدث عن بعض من نفسه ... نفسى كان قدرى أن اعيشها وحدى دون غيرى من الناس.

كان من حسن طالعى أن أكون ابنته الوحيدة وادعى اقربُ الناس إلى قلبه، فكان ذلك منبعاً خصباً لكل ما هو مشيد بالنسبة لى فكان أبى - رحمه الله - يتمتع بحنان وطيبه يعرفها عنه كل من اقترب منه، الأمر الذى لم يكن مجرد تشبيه أو مغالاة وإنما كان واقعاً عايشته، فقد حدث وان مرضت وأنا لم أزل في سنوات عمرى الباكرة «بالحصبة» فلم أجد إلى جواري طوال الليل سوى أبى الذى كان يسهر على راحتى ويطمئن على درجة حرارتى ولم يكن لينام إلا عندما تشرق الشمس. ولا اتذكر انه قسى على أو زجرنى طوال حياته كما أذكر أننى حاولت مرة أن أضع اصابعى فى أخى الأصغر فى لعبة اكتشافى للعالم فما كان منه إلا أن ضربنى برفق على يدى فضحت فى دهشه بالغة : «هل

أنت امرأه» وكان دور العقاب لم اعتده سوى من امرأه، فما كان أبعد عنه معانى القسوة والعنف.

هكذا كان أبى مزيجاً نادراً من الأمومة والأبوبه معاً. عشت فى كنفه انعم بفيض من الحب منحنى اسم حياة، بتعبير كريستيفا وسكن بين جوانبي فأضفى عليّ الجوهر والمسير.

ولم يكن لأبى أن يفصل فيما بين اعتناقه للتحليل النفسى وبين تطبيقه لمعتقداته على حياته اليومية، فكانت لغة التحليل النفسى لغةً يتحدثها كل من فى المنزل، فالتحليل النفسى كان جزءا لا يتجزأ من حديثنا اليومى وبذلك لم يكن التحليل النفسى علماً اتعلمه بالجامعة فحسب ولا نهجاً انهل منه فى الكتب، وإنما كان التحليل بالنسبة لى طريقة فى الحياة a way of life.

وضعنى أبى على طريقه ... طريق التحليل النفسى كلى أُعْلى عماره اسمه وبهذا كنت اتطلع إلى غدٍ مليء بالتساؤلات حول جدارة تحقيق التوقع. وبالمثل لم يكن لأبى أن يفصل فيما بين كونه ليبراليا وكونه أحد رواد التنوير فى مصر، وبين استقباله لى كانثى فعالمنا سيداتى وسادتى عالم ابوى ذكرى وانا من جنس ثان بتعبير سيمون دو

بوفوار ورغمها فقد كنت مصطفاة مصطفى زيور. فوجودى وقد : انبنى وارتبط بالدال الأول باسم الأب «زيور» قد حل معادلة «أكن أو لا أكون التى طرحها هاملت وحيرته.

انطلقت من الرمز كى أكون فللأب فى التحليل النفسى دور أساسى فوجوده لا يقتصر على حضوره أو غيابه وإنما على اسمه. فاسم الأب القاعدة التى تشكل بينه الدوال ووظيفة اسمه تعد مفترقاً بنيوياً له آثاره البعيدة.

ان رحيله لم يغيبه ولن يغيبه طالما ظل فى الأعماق اسمه، لقد منح زيور نفسه الطيبة لتتمثل بداخلى وبداخل كل تلامذته ومريديه ومن اقترب منه لتستدمج فكان لتمثلها أفضل الأثر فى كل من عرفوه.

أى أسم اب حملته واى اسم اب حمله جمهرة من تلامذته فايقظ بهم شمس معرفه، وأى اسم اب اسس هذا القسم الذى فتح نوافذ السماء لكافة التيارات المعرفية ومدارس علم النفس وما كان أيسر أن يغمره بمواد التحليل النفسى لكنه بهذه القامه التى يعرفها عنه كل من عايشوه ارتفع بضياء رؤاه ليختار جمهرة من رواد التيارات والمدارس النفسية المتعددة ويؤسس بهم ومعهم هذا القسم الذى اضاء بالمتعدد

شمس علم النفس.

وتفيض الكلمات فقد تعلمت منه ما يقوله التحليل النفسى أن فى الصمت لغة، وقديماً قيل الصمت ابلغ.

فسلاما .. سلاماً أبى

سلاماً لمن حملتُ اسمه فى القلب وحملنى فى قلبه وسأظل انهج بنبضه الحى فى ما حييت.

سلاماً سلاماً وإلى لقاء.

أ.د.زيــــور

أ.د. عادل صـادق

حيرتنى ظاهرة زيور فى بداية تخصصى فى الطب النفسى حين كنت أسعى إليه إجباراً كطالب فى الدراسات العليا للحصول على دبلوم الطب النفسى حيث كان التحليل النفسى هو أحد الفروع الثانوية فى الدراسة .. ولقد فوجئت أنه فى الأصل طبيب. وهذا معناه أنه كان فى إمكانه أن يكون طبيباً نفسياً بالشكل المتعارف عليه حيث كان الطب النفسى فى ذلك الوقت يزهو بانجازاته في المجال البيولوجى الدوائى وينال التحليل النفسى بكثير من النقد التجريحى المبالغ فيه وكأنه نوع من الثأر.. (تار بايت) .. وفى حلقة الدراسة تعرفت عليي رجل يختلف بكل المعايير عن المدرسة التى تعلمت فيها .. فالتفت إليه باهتمام وتركيز وليس كمجرد طالب هدفه الأوحد هو النجاح ..

.. وجدت رجلاً له صورتان : خارج نطاق حلقة الدرس كان بسيطاً متواضعاً سمحاً سهلاً ودوداً قريباً فتحبه على المستوى الانسانى. وكان داخل قاعه الدرس عملاقاً مهيباً وحكيماً مقنعاً.. فتعلقت به عاطفياً وفكرياً .. وتم تحذيرى من ذلك وقالوا لى أن زيور رجل يلجأ

إلى السحـر للتأثير على ألبـاب الناس .. ولكنى أردت أن أختبـر الأمر بنفسى .. كـان فعـلاً ساحراً .. ولكن هل كـان من عينه «سـحره الذين كان يستخـدمهم فرعون أما كان من عينه موسى عليـه السلام .. سحرة موسى استـخدموا الايحاء والخـداع البصرى .. أما موسـى فكان سحر يلمس الواقع الحقيقى...

.. وفى أى من الحـالتين فـإن زيور كـان يمثل خطورة عـلى الطب النفسى البـيولوچى والذى تمادى فى غـيه فألغى تمامـاً الظاهرة النفسـية والاجـتمـاعـية وإهتم فـقط بمكونات كليـة المخ وأرجع ركل الاعـراض النفسية إلى الخلل النوعى والكمى الذى يصـيب هـذه الخلايـا ..

.. وكنت شـخـصـياً أقف فى الـوسط .. بين مدرسـتين أحـداهمـا أعلنت الحرب بغلظة أخرجتها عن الموضوعـية ومدرسة أخرى جمعت بين السـماحـة والحكمة وتصل إليك بـطريقة أحـدهما يبـدأ من قلبك وينتهى إلى عقلك والثانى يبدأ من قلبك وينتهى إلي عقلك.

.. واستطيع أن أقول أننى تعلمت من زيور فى أكثر من مجال.

١- فى مجال الفكر : المنهج التكاملى.

٢- فى مجال الطب النفسى : أهمية التحليل النفسى.

٣- فى المجال الانسانى : تعلمت التسامح.

وأستطيع أن أقـول أن جزء كبيـر من تأثرى بمدرسة زيور يرجع إلى حبى الشخص لزيور .. وشعورى بأن هـذا الرجل كان يحمل لى معزه خـاصـة .. وبالتـالـى فـإن الإنسـان لايسـتطيع أن يفـصل ذاتيتـه عن موضوعيته ..

مصطفى زيور وقضايا الإنسان

أ.د. فرج أحمد فرج

١- طور النشأة والتكوين :

لعل الدقائق القليلة المتاحة لى تلزمنى بإيجاز شديد، لا يليق بما لمصطفى زيور من مكانة، ولا بما لعطائه من ثراء وأهمية، بل وبما لا يليق بما لعصره كله من أهمية فى تطور نصه الفكرى والثقافى، فقد ولد الرجل فى مطلع القرن الماضى (١٩٠٧) وعاش أحداثه الجسام، فى مصر وفى العالم كله ، تقع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٧) فيعيشها صبيا ثم تعقبها ثورة ١٩١٩م ويملأ إسم علمها (سعد زغلول) وجدان الجميع، وتتفجر ينابيع الوعى، ويقوى نداء الحرية والإستقلال، وتبزغ شمس طبقة جديدة من لمفكرين والمثقفين، وتعرف مصر دستور ١٩٢٣، .... تمر وتتتابع سنوات النضال على جميع المجالات. أحمد لطفى السيد، طلعت حرب مصطفى النحاس ... وتقوم على أرض مصر جامعة ... أهلية فى البداية ثم حكوميه ... ويكون مصطفي زيور بين أول الملتحقين بها وبين أول دفعة من خريجيها ..... ويكن تلقية على يدى عميدها وعميد الأدب العربى كله على إمتداد العالم العربى

بأسره (طه حسين) وتعرف مصر فى هذه الحقبة رموز الفكر والأدب والسياسة والإقتصاد ... لطفي السيد مؤسسى الجامعة ومؤسسى العقل المصرى الحديث ... طه حسين عميد الأدب أحمد شوقى أمير الشعراء، حافظ إبراهيم شاعر النيل ... هذا هو المناخ الذى عاشه مصطفى زيور طفلاً فصبياً فمراهقاً فيافعاً ثم شاباً يتأهب للسفر إلى فرنسا طلباً لمزيد من علم ومزيد من فكر وإستنارة ... ولكنه لا يذهب صفحة بيضاء، بل يذهب وهو يحمل معه زادا من فكر ورأى وخبرة وتكوين، ففى مدرجات الجامعة يتلقى على أيدى لفيف من صفوه أهل الفكر، من أبناء الوطن، ومن صفوة من أساتذة فرنسا إستنارت بفكرهم مدرجات الجامعة، بل وقد شب فى رحاب مناخ لبرالى لشد ما نتمنى الآن لو هبت علينا بعضاً من نسائمه ... ذهب - فيما أرى - الحفيد الرمزى للطفى السيد والإبن الرمزى لطه حسين. ذهب وهو الممثل لتيار تنويد وليد ... نعم وليد، لكنه كان وليد عفِّى. وخلال دراسته فى فرنسا ينخرط فى دراسة الإنسانيات علوم النفس والفلسفة، ويسعى إلى إرضاء رغبته الدفينة ... دراسة التحليل النفسى وإذ به - كما كان يردد هو نفسه - يجد أن الطريق إلى التحليل النفسى لابد أن يمر بطريق دراسة الطب ... ويجد عندما يخاطب والده فى ذلك ترحيباً

وتشجيعاً شديداً ... وكيف لا فوالـده طبيب مرموق (كبير أطباء وزارة المعارف العـمومية) تلقى تعليمـه الطبى فى فرنسـا ... وهكذا ينخرط مـصطفى زيور فى دراسـة الطب ويبلى فـيهـا بلاءً حـسناً... لا بل أنه يمضى فيـها من نجـاح إلى نجاح ولعله كان مـدفوعاً فى ذلـك بعديد من العـامل من بينهـا - فـيـما أرى - التـعـيين الذاتى بالأب والرغـبـة فى محـاكاته وإرضائه بالسـير على دربه ثم الرغبـة فى تحقيق تلك الرغـبة الذاتيـة الملحـة، التـحليل النفـسى لذلك يـكون الفـرع الذى يختـاره لتخـصصه الدقـيق هو الطب النفسى ... ويتكلـل هذا السعى الدءوب بالنجاح وينتقل من مقاعد الدراسة رلي مقاعد أعضاء هيئة التدريس .. وينتهى به الماطف رئيساً لعيـادة الطب النفسى بطب باريس كما يصبح محللاً نفسيـاً مرموقاً تتوالى إسهاماته وبحوثه فـى مجال شديد الحداثة أن ذلك - هو بالتـأكـيـد من رواده ومـؤسـسـيـه. أعنى مـجـال الطب السيكوسوماتى ... يكتب فى عديد من مـوضوعاته ... قرحة المعدة ... وضغط الدم الجوهرى ... المياة الزرقاء ... ويعيش آن ذاك تجربة الحرب العالمية الثانيـة محاصره وقائعها ويعايش نيـرانها .... ويقرر العودة إلى الوطن ....

٢- طور الإنجاز والإبداع :

بعودة مصطفى زيور إلى مصر وبقائه على أرضها، وإرتباطه بترابها يكشف لنا عن وجه آخر، عن معدن الرجل، لا وحده، بل وغالباً أبناء جيله من مثقفى مصر ومفكريها خلال تلك الحقبة، ولعها - فيما أذهب - حقبة الأربعينات والخمسينات من القرن الماضى، لماذا عاد مصطفى زيور، ولما بقى ولم يفكر فى العودة وذلك ما فعلته حشود وحشود من أبناء الجيل التالى على جيله مباشرة أبناء الرعيل الأول من تلامذته وتلامذة زملائه من أساتذة الجامعات من نفس جيله ... ولقد كان الرجل قد حقق مكانة مرموقة فى تخصصه كما كان قد بلغ بالفعل مكانه أكاديمية رفيعة، بل وكانت فرنسا - وكل أوروبا وأمريكا - بسبب ما أحدثته الحرب من خراب وخسائر فى أمس الحاجة إلى تلك المواهب والمهارات والكفاءات ... أحسب أن هذا الجيل من عقول مصر ظل رغم كل ما عرفه الوطن من مأسى وأحزان فى مجال السياسة، والحكم والإستعمار الإنجليزى الجاثم على أرض مصر يتواطء مع الأحزاب السياسية، ومع الملك ويتلاعب بهما معاً، وبإيجاز شديد كانت المحنة قاسية، لكن صفوة عقول مصر آثرت البقاء، رغم ذلك الهامش المحدود للغاية من اللبرالية (ولا أقول الديمقراطية بمعناها

السياسى الحق) .... أقول عاد مصطفى زيور من فرنسا ليبقى ولم يفكر فى العـودة إطلاقاً - شـأنه فى ذلك شأن رفـاقه من صـفوة أبناء جـيله وطبقـته ... لكن ما يلفت النظر بالنسـبة لمصطفى زيور، أنه عاد ليـعمل فى مـجال الإنسـانيات ... إلتـحق بكلية الآداب (الاسكندريـة) وكان أستاذه (آن ذاك) رئيساً للجامعة .... صحيح أنه مارس عمله فى عيادته الخاصـة محللاً نفـسياً - وطبـيبـاً نفسيـاً بالطبع - أما في الآداب فـقد إنطلق فى آفـاق رحبـه لم تقتـصر على حـرفيـات علم النفس ومبـادئه الأكاديمية المباشرة، ونظرة عـجلى على بحوثه ودراساته المنشورة برهان على ذلك ... يكتب فى الشـخصـية الإسرائـيلية، وفى التـصوف وفى التعصب ويشارك رفيق صباه دراسته (المغفور له الدكتور يوسف مراد) فى إنشـاء مجلة عـلم النفس، كذلك يصـدر مـجلة الصحـة النفـسيـة (تتـوقف بعـد صـدور عدديـن منها) وهـكذا يوفق مـصطفى زيور بين الطبيب الملتـزم بقسمـه المهموم بمـريضه المشغـول بشفائه، وأسـتاذ علم النفس المنشـغل بـهـموم بـلده وبآفـاق علوم الإنسـان على رحـابتـهـا وإتساعها يحـمل معه ما إكتسبه من فكر رحـب نلتقى فيه علوم النفس ومناهج الفلـسفـة والمنطق بـالتحـليل النفـسى وبأنثـروبولوچيـا ليـفى شتراوس البنيوية، ولا نغض الطرف عن الـبنيوية اللغوية - فردناند دى

سوسير - ... مع عشق لا يقاومه محلل نفسى للأساطير بعامه واليونانية بخاصة يستقر من القلب منها أديب سنوفوكليس وإكو نرجس. ويتوج هذا كله ويمنحه عمقا ونقاذا عشقه الشخصى للديالكتيك بعامة الديالكتيك الهيجلى وفنومنولوچيا الروح - أو علم ظهور العقل - بحسب الترجمة الرائعة لمصطفى صفوان ....

ووقفة خاصة أمام

«جدل الإنسان بين الوجود والاغتراب»

لم هذه الوقفة، في حديث تنساب دقائقه القلله وتمضى سطورة المحدوده .... الحق أننى أجد في هذا المقال ومضة إشراق فى سماء تلفها الظلمه، وبارقة أمل فى زمن تذبل فيه الآمال، وإذا كنت أرى فى مقال زيور عن التعصب - بحكم تاريخ كتابته (فبراير ١٩٥٢م) برهان على لبرالية فكرية أجهزت عليها «ثورة» يوليو ١٩٥٢م فإننى أرى فى مقال جدل الإنسان برهان على إنطلاقة أمل يطلقها زيور فى مناخ صارم تنطفىء فيها الآمال أملاً بعد أمل ... - وهذه رؤيا شخصيه جداً يمليها على السياق الخاص بالاستاذ والسباق الخاص بزمن كتابتها - وسياق هذه الكتابة ... كتب زيور هذه الدراسة فى عام ١٩٦٨م، ويبرز هذا التاريخ أمرين أولها عام هو هزيمة يونيو ١٩٦٧م. تلك الهزيمة القاسية الصادمة ... كانت زلزالاً أطاح بكل ما هو طيب وتزداد قسوة هذا الزلزال ليعصف بفئتين المثقفين وكبار السن ويندرج مصطفى زيور فى هذين الفئتين. وقعت الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧م والرجل على أبواب التفرغ (سن الستين)، وهكذا تجتمع الهزيمة مع أزمة السن ويضاف إلى

ذلك عامل الإنتماء الوطنى فالرجل ينتمى لجيل عرف بعشق الأرض وحب ترابها ... نهاية مرحلة تسبقها بشهور هذه العاصفة التى تقتلع كل ما تبقى ... وكان على الأستاذ أن يتماسك، وبخاصة لأنه يدرك حاجة تلك الجماعة القليلة من صفوة تلامذته المحيطين به، يطلبون منه السيد ويلتمسون عنده أمل يبعث لعله يطرق الأبواب مبدداً ظلام اليأس هكذا - فى ظنى الشخصى - وقد لازمت الأستاذ منذ تلقيت عليه فى خريف ١٩٥٣م طالباً، فباحثاً، فمعيداً حتى صرت أستاذاً بالقسم نعمت بصحبته ورفقته تلميذاً فإبناً، فرفيقاً على درب الصداقة والزمالة حتى بدايات العقد الأخير من القرن الماضى، حتى كان لقائه - رحمه اللّه - بخالقه.

كانت إذن «جدل الإنسان» رسائل موحيه كأنى به يحملها إلينا وصاياه ورحيق حكمته ... تضمنت حديث عميق وفهم خلاق لمفهوم الجدل، وطرح برقىٍّ - شديد الإيجاز - لجدل العبد والسير، ووقفة تأمل أما «السالبية» وكيف يقود عمق الفهم لها والإستبصار بعميق مغزاها إلى ما يشبه الأمل فى غد مخالف، بفضل «السالبية» يكون موت الموت. وكأنى به ظلمه الليل البهيم أشد ما تكون حلكة قبل إنبثاق الفجر، وفى طرحه هذا يعرج على فرويد ويلقى أضواءً ما كان

أحوجنا إليـها على أخر مـفاهيم فرويد، تلك التى ضـمنها دفتى كـتابه الشهير - والبالغ الصعوبة والشديد التـعهيد، والذى فجر بين المشتغلين بالتحليل النفسى أمـواجاً عاصفة من الخلاف الجـدل والأعتراض أعنى «مـا بعـد مبـدأ اللذه» ... أحـسب أن هذه الإشـرافـة المتوهجـة كـانت خلاصة فكره وصفـوه حكمه صقلتها عقـود من الخبرة والفكر والريادة والتـأمل ... لكن مـا يحـز فـى النفس أن تلك الصـفــوة من الأبناء والمريدين، رغم ما وصلوا إليـه من مكانة أكاديمية رفيعـة لم يمنحوا هذا العمل ما هو أهل له من مـتابعة وإهتمام وتطوير وبدا أن شجـوناً كثيرة هموماً أكـثر لم تترك لهم من صفاء الذهن القـدرة على التأمل وتقليب الفكر مـا يشحـذ الهمم ... ولله حكـمتـه ولله أيضاً قـدرته على بعث الهمم.

ويبقى الأمل فى غد مشرق وفاءً للرجل

وسيرا على دربه من أجل غد نترقب فجره

أ.د. فرج أحمد فرج

الأبـــوة والمعـرفــة

بمناسبة احتفالية آداب عين شمس

بالرائد العظيم مصطفى زيور

أ.د. عبدالله عسكر

تشرفت بدعوة كلية الآداب جامعـة عين شمس للمشاركة بالحديث في ذكرى تـكريم الرائد والفيلسـوف والطبيب والمعلم الأول للتـحليل النفسى فى عـالمنا العربى مصطفى زيور وتوج شـرفى بتلقى الدعوة من الدلالة الفائقة لبنوة صائرة عبر أستاذتى وزميلتى وأختى فى أسرة الأب المعلم نيفين زيور.

وليس لى أن أنبش فى ماض، طالما أن الماضى ما زال حياً، حـياً فى سـيـاق الخلود والدلالـة فـهـا هو اسم مـصطفى زيور يـنـيـر كل فكرة مطروحة فى بحوثنا العلمـية، وما زالت مدرسته فـعالة وما زال مريدوه كثيرين، وها هى الدوريات الفرنسـية فى التحليل النفسى تراجع فكرها وتذكو بالفضل لرائد من رواد التـحليل النفسى الذى تعلم وعلم وأدار أكـبر العـيادات الـنفسـية فى بـاريس وأسس للمدرسـة الفـرنسيـة فى الاضطرابات النفسجسمية، وها نحن نفـخر بانتمائنا لهذا التيار الرائد،

هذا التيار الذى يتجاوز حدود المألوف الشائع إلى البحث عن الإنسان المتوارى خلف ركام الأشياء وضلال الصورة وغربة الوجود البشرى.

واسمحوا لى أن أعرض القيمة العليا للأبوة، ليس فى تأسيس الأسرة والأخلاق والدين فقط، ولكن فى تأسيس المعرفة، فلقد تجسدت كل آيات الأبوة فى رائدنا المحتفي به منذ أن جذب بأبوته جمع من التلاميذ الذين تأسسوا على الزاد المعرفى الذى لا ينضب حيث تنفتح الآفاق وتتنوع الآراء وتنجلى القرائح، فها هم تلامذته يبدعون لمجرد حصولهم على الدكتوراه حيث نجد ابداعاتهم رائدة فى بحوثهم العلمية وما كان لهذا الإبداع أن يبزغ إلا فى مناخ الأبوة، لأن الحرية الحقة تستلزم الصراع من أجل الوجود والتجاوز، فى تنافس معرفى إيجابى خلاق بين الأب والأبناء، حيث ترتفع قامة الأب بالتباهى بما يبدعه الأبناء، وترتفع معدلات الإبداع والتنافس بين الأبناء مستمدة قوتها من الأب المثالى الذى ينشر الأمان المعرفى فى ربوع العقول الضالة لتهتدى إلى آفاق الدلالة حيث ترتفع القيمة الرمزية على القيمة المادية فى مناخ سياسى لم يكن يسمح أصلاً بارتفاع القيمة المادية على القيمة الرمزية، وهكذا تناغمت الرغبات حيث صار التحليل النفسى فى مصر والشرق العربى خطاباً أسهم فى تشكيل

هوية الباحثين الأوائل وطرح مشكلات المجتمع على أساس علمى وتوالت الإبداعات، وتواصلت حلقات الدرس والنقاش بين الأب المعلم وأبنائه فى مكتبه وعيادته ومنزله، بعد أن وسعهم عقله وشملهم حبه برعاية أبوية رمزية كان من المستحيل أن يستمدوها من الآباء الفعليين.

وهنا نتوقف لنعرف مدى تجاوز الأبوة المعرفية لكل صور الأبوة الفعلية الخيالية، أبوة تسعى لأن تمنح الذات هويتها وتصبغ عليها قيمة المعنى والدلالة حيث تتحرر من الأسر فى إطار العلاقات المألوفة لتخرج إلى الدنيا مفعمة بالدلالة، وبهذا كان زيور متجاوزاً لمفهوم التوحد متخطياً آفاق هذا المفهوم الضيق إلى مفهوم الهوية والوجود حيث خصوصية الذات الإنسانية وتفردها، ففى الوقت الذى تبنى فيه المعلم التحليل النفسى التقليدى وظل أميناً لتعاليم مؤسسيه ووظفه بإبداعه الخاص في معظم ميادين علم النفس، إلا أنه وبحدس تحليلى فريد أتاح المسرح للتغير فلكل تلميذ مشروعه حيث تنوعت الوحدة وتجسدت فى عالم شكلت حروفاً مضيئة فى سماوات المعرفة التحليلية لنرى كيف يتجاوز صفوان التقاليد الجامدة للفكر والممارسة الفرويدية ويصبح مرجعاً أوربياً بل عالمياً لآفاق اللاكانية بوصفه أحد الأعمدة

الأساسية فى تأسيس الفكر التحليلى الجديد، كما يؤسس سامى على مدرسته المتميزة فى الاضطرابات السيكوسوماتية، وينطلق أحمد فائق إلى آفاق الممارسة الإكلينيكية بإبداعات نظرية تتجاوز حدود العيادة إلى مشروع الخطاب العلمى فى النقد النفسى الاجتماعى وطرحه الرائد لإشكالية المنهج والاضطرابات النفسية الاجتماعية كأول مشروع علمى حقيقى يتناول القضايا الفكرية والسياسية فى الساحة العلمية العربية، وها هو فرج أحمد فرج يتبنى العديد من التيارات الجديدة منذ طرحه لآراء ميلانى كلاين ليدلف إلى عالم الفينومينولوجيا ويؤسس للفكر الوجودى فى المشروع التحليلى لينطلق إلي تبنى الخطاب التحليلى اللاكانى ويواصل إبداعاته عبر ومضاته الإبداعية التى تنير الطريق وتفتح الثغرات فى عالم الأدب الذى يضعنا أمام صورة نقية لمؤسسة اللاشعر العربية.

وتتتابع الومضات حين نشهد لها بريقاً فى إبداعات قدرى حفنى الذى استطاع أن يبحر فى الصعب ليضع الشخصية الصهيونية على المحك ويواصل ولوجه فى هموم الفلاح المصرى والقضايا السياسية القومية ليكون مجموعة بحث متميز فى علم النفس الاجتماعى والسياسة،ليأتى حسين عبدالقادر فينقلنا إلى المسرح، حيث تشكل

أطروحتيه مسرحاً خاصاً بالسيكودراما حيث يؤسس فيهما لسيكودراما المشروع العلمي في ربع قرن عرضاً ونقداً وتشكيلاً قبل أن يعرض السيكودراما كمشروع علاجي ممكن لمرضي الفصام ليظل ممثلاً لوزارة الإعلام والثقافة لمشروع التحليل النفسي الصائر وأيضاً وزيراً للشئون الخارجية حيث تتواصل إبداعاته في مد الجسور بين نجوم الهجرة ونجوم الوطن حتى ينتهي إل طرح الرؤية التاريخية لمشروع التحليل النفسي في عالمنا العربي في أحدث ما أصدرته المكتبة العربية حول ماضي وحاضر ومستقبل التحليل النفسي.

هذا التنوع الفريد الذي غطى معظم جنبات الظاهرة النفسية يأخذ مشروعيته من الأبوة الفاضلة التي أبدعت لنا بنوة رائعة فها هي نيفين زيور تتبوأ مكانة أنتيجون واسمينا في ثلاثية التحليل النفسي لترعى الأدوة في بستان المعرفة والخلود حيث تتبنى المشروع التحليلي الأساسي في إطار الطفولة المؤسسة لمشروع الذات وتواصل إبداعاتها فكراً وممارسة وتنفض غبار الوظيفة الرسمية لتتبوأ مكانتها الفكرية في عالم تتراجع فيه المرأة عن الدلالة الرمزية لتنحصر في الدلالة الشيئية وها هي تواصل ولوجها في عالم الكتابة للتواصل الأبوة.

والكثير الكثير مما يقال عن الأبناء المعرفيين الذين ملئوا الدنيا نجاحاً، وما أجمل الأخوة في السياق المعرفي، فلقد تزامنت أبوة زيور مع أبوة الرائع صلاح مخيمر الذي أفاض على الجميع بعطائه وشارك بفكره وعلمه وممارسته في تأسيس العديد من أبناء زيور وملأ الدنيا بكتاباته وترجماته وأصدائه حتى أصبحت جامعة عين شمس رائدة الرواد في التحليل النفسي وما زال الجميع يفخر بانتمائه إلى هذه الجامعة لأنها بدأت بمشروع الأبوة المعرفية التي أسست لكل العلوم عبر التاريخ المعرفي للبشرية.

فهل لنا أن نقتبس نوراً يسطع في الآفاق ليستقر في الأذهان لنجد الرابط الذي يلملم شمل واقعنا المتشطر؟، هل لنا أن نستعيد شريعة الأبوة التي بدونها سنسقط فريسة للذهان والانحراف حين تجرنا الصورة المرآوية لنلهث وراء حاجاتنا المحدودة وتحجب عنا آفاق الرغبة السرمدية؟، وهل لنا أن نعترف بأن رغبتنا مطروحة في المشروع التحليلي الصائر حين يكون الآخر أو الأب المعرفي الأمين هو ذلك الذي يفصلنا عن نرجسيتنا ليصلنا بالمشروع المعرفي الذي يمنحنا بعض هويتنا - أم سنظل نتخبط نحن الموظفين في دهاليز عالمنا المحدود نعمل لحساب معدتنا بعد أن تضيع معالم الرسالة من علياء فكرنا الرمزي..

سلاماً ... سلاماً أيها الأب الصائر فى حروفك المضيئة وتحية للأبناء البررة الذين ينسجون رداء الأبوة المعرفية لمن يريد أن يكتسى بعد أن تعرت الظواهر وكشرت عن أنيابها النرجسية حيث الفتنة والتدمير.

رقم الإيداع : ٤٩٤٤/ ٢٠٠٥

الحريرى للطباعة ٣٢٠١٢٨٥